هناء منصور

السند

قصة عربية من الواقع المصري

كلمة

" الحب كالماء والهواء..

لا يكلف شيئا..

لكن الحياة بدونه..

أقرب للموت"

مقدمة

في وطن كبير.. تتشابه الأحياء.. داخل الأحياء تتشابه الشوارع وفي الشوارع تتشابه البيوت.. داخل البيوت تتشابه الأشخاص كثيرا. ربما اختلف بعضهم لكن الأكثرية منهم متشابهون.. متشابهون جدا!

(1)

تدق الخامسة صباحا؛ في تلك الساعة كانت زينه تبدل لباس الصلاة، ثم توقظ أطفالها؛ لتعد لهم وجبة الإفطار؛ لكنها لا تزال منزعجة من حديث سارة لها أمس، عندما أخبرتها أن النساء في بلادنا يعشقن دور المظلوم؛ ليتمادين في الشكوى وينلن العطف.

سألتها زينة مستدركة: وهل يشكو إلا من ألم به الظلم و لم يجد حيلة فيه.

أجابت سارة: عليها أن تواجه.. تسحق من يظلمها و تدفعه عن طريقها.

لكن زينة اعترضت: هذا إن لم تكن مسئولة عن قلوب أشخاص غيرها.

زينة.. صيدلانية.. زوجة في الأربعين وزوجها سليم في نفس العمر تقريبا؛ محاسبا بإحدى الشركات. لديهم طفلان، يوسف.. في الثالثة عشر، وملك في العاشرة.

أثناء تناول الأسرة للإفطار يشغل الأب برنامج تليفزيوني يتحدث عن أزمة منتصف العمر وكيف يفكر الرجل بالزواج مرة ثانية خلال تعرضه لهذه الأزمة.

الطبيب.. في هذه الفترة يعيد الإنسان التفكير في كل حياته؛ وهل هو فعلا يسير في الطريق الذي أراده لنفسه أم لا. ويكون لديه أحساس أنه اقترب من الموت، بعض الرجال يقررون إعادة حياتهم، كي يعوضوا ما فاتهم. والبعض الآخر يرضخ للمسئولية التي عليه، ليحافظ على من هو مسئول عنهم.

كانت زينة تتابع البرنامج بإنصات وهي في المطبخ

أما الزوج فهو يتناول إفطاره أمام التلفاز ويتابع الأخبار على الهاتف، ويبدو أنه لا ينصت لأي شيء حوله.

الأولاد يذهبون للأم يودعونها قبل الذهاب للمدرسة، تسأل الأم .. هل سلمتم على والدكم؟

- نعم يا أمي

أنهى الأب إفطاره واستعد للخروج للعمل.

هي مازالت في المطبخ...

يقف أمام الباب بقامة متوسطة الطول وجسد ممتلئ.. ذو وجه مستدير وبشرة قمحية.. تتوسطها أنف مستقيمة، شعره أسود.. اختلطت به بعض الشعرات البيضاء، يتابع هندامه وشعره.. وعندما يطمئن إلى أن كل شيء كما ينبغي، ينادي:

- زينة.. أنا نازل..

(2)

يسمع جرس الهاتف، يفتح عادل عينيه بكسل شديد، ينظر إلى الساعة.. مازال الوقت مبكرا. يدرك أن الاتصال من أولاده فيستفيق سريعا.

يفتح الهاتف

- أهلا حبيبي، كيف حالك وحال أختك؟

هل والدتكم بخير؟.. بلغها سلامي.

ستصلكم النقود. أنا دفعت مصروفات المدارس..

وينتهي الاتصال

عادل رجل تخطى العقد الرابع من عمره.. أزرق العينين طويل القامة.. نال الصلع من رأسه جزءا واضحا، رياضي القوام، وخمري البشرة.. من يتأكد من ملامحه يشك في نسب ما، يربطه بأسرة الملك فاروق.

يتابع أركان المنزل.. كأنه يراجع ذكريات مرت به ويعود للجلوس على أريكته يشغل التلفاز؛ يتابع نفس البرنامج السابق الذي يتحدث عن أزمة منتصف العمر.

المذيع.. إلى متى ممكن أن تستمر هذه الأزمة؛ أم أنها تبدأ في الأربعين وتظل مستمرة؟

الطبيب.. قد تستمر سنتين أو أكثر لكنها لا تبقى غير منتهية؛ إنها أزمة.. تستغرق وقتها وتنتهي.

يستمع للبرنامج بلا مبالاة حتى ينتهي من صنع كوب القهوة يترك التلفاز ويتجه للنافذة؛ يحتسي قهوته، يفكر في زوجته التي تركته؛ لأنها أرهقت من غيرته الشديدة عليها.. ربما تحامل عليها بعض الأوقات؛ لكنه لم

يفعل ذلك إلا حبا فيها. لم يعد يتحمل حياته في بيت صار يشبه القبور بعد رحيلهم.. سيعاود المحاولة مجددا معها.. ربما تغير فكرها أو تدرك حاجة أبنائهم للحياة في بيت متكامل تعمه البهجة.. ينتهي من قهوته ثم يستلقي في فراشه من جديد، يتابع الأخبار على هاتفه المحمول.

(3)

كل يوم يخرج سليم.. يتركها تتقاتل مع نفسها؛ التي تتمنى لو تودعه بالعناق، وبين قلقها أن يواجه رغبتها بسخرية واستخفاف. باتت لا تتحمل. تحاول منذ شهور أن تصل لقلبه. تبعث كل يوم برسالة مكتوبة؛ مرة تقول "أحبك" وأخرى ترسل أبيات شعر من أروع ما قيل.. ومرة تحكي عن إحساسها أول مرة التقت به. لكن سليم يتجاهل كل ما تكتب

وظن أنها تفعل ذلك لفراغ وقتها. ذات يوم بعثت له صورة وردة وكتبت "أريد واحدة". اليوم قررت أن تكون أكثر وضوحا وصراحة في التعبير، فكتبت تقول "اشتاقت أذني لكلمات تهز قلبي وتزلزل وجداني.. لدي رغبة في قراءة بعض الأشعار.. اختر لي ما تحبه".

هذه المرة لم يكتف سليم بالتجاهل واتصل بها؛ قال:

- أي شعر تريدين قراءته؟

- كنت تهوى الشعر.. اشتقت لسماعه منك.. فقال بجفاء:

- كانت مرحلة وانتهت.. وتابع، هل تعتقدي أنك مازلتِ صغيرة أم لم تلاحظي شعرك الأبيض بعد؟!

لم تزد كلمة؛ كانت كلمته الأخيرة طعنة في قلبها وشخصها وأنوثتها بلا رحمة.

جلست لا تشعر بشيء حولها؛ تكرر سؤال واحد، أهذا الذي يضيع عمري لإسعاده؟ يبخل علي بمجرد كلمة طيبة، ممن أسمعها، إن لم اسمعها منه؟!.. من يروي ظمأ وجداني إن لم يكن هو؟

إن الجلود تذبل وتشيخ، لكن القلوب تحتفظ دائما بطفولتها وشبابها.. لتستدعيها وقت الألم والحزن، حتى تستقيم وتعود للهفتها على الحياة من جديد. نعم إنها كبرت.. لكنها لم تكبر لتنسى الحب بل لتدركه أكثر

وتحتاجه أكثر.. كبرت لتعرف أن الزواج ليس علاقة وظيفية بين رجل وامرأة؛ ولكنها علاقة وجدانية في المقام الأول.

تستعد للخروج.. تضع حجابها على شعرها الذي غيرت لونه بصبغة حمراء.. زادت من جمال عينيها العسليتين؛ اللتين علاهما حاجبين بين السمك والرقة وبشرتها الفاتحة كالثلج..

تبتسم في المرآة.. وكأنها تطمئن أنها مازالت قادرة على الابتسام.. وتطمئن إذا ما كانت ابتسامتها لا تزال مقنعة.

تخرج إلى عملها والساعة تدق العاشرة، رغم قدرتها المالية لم تحضر خادمة فهي تعتقد أن رعاية المرأة لأسرتها شرف لا يجب أن تتخلى عنه.

تعمل زينة في صيدليتها الخاصة فترة النهار حتى الساعة الرابعة، ويتم العمل في فترة الليل زميل لها، وبعد أن تنتهي من عملها بالصيدلية تذهب إلى المتجر لشراء ما يحتاجه المنزل أو أولادها؛ تمر ببيت والدتها لتحضر ابنتها ملك ثم تعود إلى المنزل بعد عودة زوجها، تعد الطعام للجميع، ثم تمضي الوقت مع أولادها في مراجعة دروسهم وتسمع منهم عن أي شيء قابلوه وماذا فعلوا.

أما سليم فيمضي يومه بعد الاستيقاظ من قيلولته في متابعة التلفاز.. يقدر سليم متابعة الأخبار وبرامج التوك شو؛ فحول ما يسمعه في الأخبار اليوم سيدور الحديث مع زملائه غدا.

على زينة أن تبقى مستيقظة حتى الثانية عشرة لتتابع طلبات سليم وهو مستلقٍ على الأريكة يتابع الأخبار.. صمتها يسود على صوتها سواء في المنزل أو الصيدلية. قالت لصديقة لها ذات مرة عندما قابلتها.. "لم أعد أحب الكلام فلا جديد يشغل عقلي لأتحدث عنه". لكن تلك ليست الحقيقة كاملة؛ فهي تود التحدث لكن لشخص بعينه اعتقدت يوما أنها تفهمه ويفهمها؛ وعندما قرر ألا يسمعها.. قررت الصمت؛ ليس الصمت عن حديثها له فقط ؛ لكن الصمت تماما. ولولا أنها قدوة أولادها ومصدر قوتهم في مواجهة الحياة، لصمتت تماما. إنهما ينتظران عودتها دائما بغير صبر ليخبراها بكل تفاصيل يومهما ورغم أن الأب يكون متواجدا مع عودة الأبناء إلا أنهما لا يتحدثان إليه إلا قليلا.

سليم موظف روتيني يكره المفاجآت، ولا يحب العمل تحت ضغوط .يحب أن يكون مسيطرا في بيته دائما؛ هو الآمر الناهي فيه ؛ يعتقد أن تلك هي الرجولة. دائما ما يرى أنه على صواب لا يحب المناقشة في قراراته. تتقلص حياته بين البيت والعمل وكثير من الأصدقاء، لكنها صداقات سطحية. تتلخص علاقته بأولاده في الإنفاق وتقديم الهدايا في

المناسبات السعيدة، أما أي شيء أخر كالتنزه والتعليم والتربية أو أي نشاطات أخرى تتولاها زينة.

أحبها كثيرا عندما رآها للمرة الأولى عشق فيها الهدوء والقوة ولمعة عينيها التي كثيرا ما أضاءت أيامه؛ لا يذكر أنه فرح لشيء قدر ما فرح بموافقتها على الارتباط به.. بعد سنوات من الزواج انشغلت وابتعدت مرة بعملها ومرة بالأولاد.. لم يبالِ بذلك الانشغال أو البعد كثيرا في البداية.. فكل متطلباته تتحقق قبل أن يطلبها.

(4)

تمضي زينة إلى عملها بسيارتها الخاصة مستقبلة اليوم الجديد؛ مع ثلاثة من العمال في الصيدلية التي ورثتها. إنها في مكان متميز وتحقق لها دخلا مرتفعا. يحقق لها رفاهية مالية في حياتها وحياة أسرتها. أولادها متفوقان في دراستهما وبصحة جيدة، لكنها دائما تفكر أن شيئا ينقصها..

شيئا تائها عن حياتها.. لكنها لا تعرفه حتى تبحث عنه وتجده.. إنها كثيرا ما تشعر بالحزن بسبب شعور الفقدان هذا. حزن لا تشكوه؛ لكنها تكتفي بتدوين مشاعرها بهاتفها؛ مرة كتبت "هناك شيء مفقود.. شيء أحتاجه حتى تتخلل السعادة قلبي.. إن كل فرح أشعر به هو ابتسامة مصطنعة فوق شفتي، لم تجرؤ أن تلتحم بعيني، لتنظر للدنيا بسعادة".

بدأت علاقة سليم بزينة بتعارف أفاض إلى حب هادئ، ثم زواج لكن بعد سنوات من الزواج بدأت كل الأضواء تخفت داخلها وصار كل شيء مصطنعا.. وهنا كتبت

"تحولت حياتي إلى لعبة كبيرة من التظاهر.. تظاهر بالطاعة، تظاهر بالحب، تظاهر بالسعادة.. تظاهر بأن كل شيء كامل داخلي، من رونق نفسي إلى ابتسامة لا تختفي".

تخترق أفكار زينة صوت شاب في الثلاثين أو تخطاها قليلا؛ طالبا بعض المنشطات الجنسية دون وصفة طبية، فيعترض العامل قائلا:

عفوا لا يمكن صرفه دون روشتة

الشاب : لماذا؟

العامل: آسف.. هذه تعليمات الدكتورة، عليك أن تطمئن على صحتك قبل استخدام هذه الأدوية، كي لا تضرك أو تقتلك.

تابعت زينة حوار الشاب والعامل وهي تتأمل قوته وشبابه وعادت إلى مذكراتها.

"ماذا أصابهم.. وما يشغل عقل ذلك الشاب.. ولما يصل إلى تلك الحال في تلك السن الصغيرة.. أهو الهم؟ أم يبحث هو أيضا عن شيء لا يعرفه؟ أم أن طموحاتهم توقفت عند تحقيق رغباتهم المادية؟ هل يعتقد الرجال، حقا، أن الجنس هو مقياس الرجولة؟ كيف وهي صفة مشتركة بين جميع الكائنات الحية؟.. لا تخص الإنسان وحده.. إنما الرجولة فتخص البشر وحدهم.. وهي ما يجب أن يتجمل بها جنس الذكور من البشر".

لم يكن ذلك الشاب هو الأول الذي يسأل عن ذلك الطلب، لقد زاد الأمر حتى صار مألوفا..

بعد دقائق، دخلت إليها سيدة معها طفلة في العاشرة، لتغيير ضمادة على يد ابنتها، تركت زينة هاتفها وتحركت نحو السيدة بابتسامة وترحيب قائلة:

كيف الحال اليوم؟

وبدأت تعمل لتغيير الضمادة وهي تتابع حديثها للطفلة..

لن تحتاجي لغيار بعد هذا. سأفتقد ابتسامتك الجميلة.. ضحكت الطفلة وقالت:

نحن من سيفتقدك.. هل تسمحين لنا بالمرور بين الحين والآخر للاطمئنان عليك؟

- يسعدني ذلك كثيرا وربما قابلتي ابنتي.. هي في مثل عمرك.. ستسعد بكي كثيرا.

تنتهي زينة من تغيير الضمادة للطفلة وتعود لتتابع العمل على مكتبها.

تخرج من حقيبتها بعض الكتب المدرسية للمرحلة الابتدائية والإعدادية وبعض الأوراق وتبدأ في تحضير الدروس التي ستراجعها لأبنائها اليوم، لكي يستمر أبناؤها في تفوقهم عليها متابعتهم بنفسها في كل خطوة في حياتهم أنها قدوتهم ومثلهم في الحياة،

أنهم الحدث الوحيد الذي يمر بها ولا تحب أن يفوتها منه لحظة؛ إنها منبع قوتهم وصديقهم ومرشدهم ومعلمهم ومن يهتم بأكثر حياتهم.. وهم أنفاسها التي تلهمها الحياة وتعطيها القدرة على استمرار التظاهر أحيانا و التجاهل أحيانا أكثر.

(5)

عندما دقت العاشرة صباحا.. كان عادل مستلقيا لم يغادر فراشه،

عادل مدرس لغة فرنسية في مدرسة ثانوية؛ مستقيل منذ سنوات ويعمل لحسابه الخاص. يبدأ عمله فعليا بعد الساعة الواحدة. ميسور ماديا جدا، انفصل عن زوجته؛ ورغم مرور سنوات بعد انفصالهما ألا أن أحدا منهما لم يتزوج. لديه ولد يدرس في المرحلة الثانوية وابنة في الصف الأول الثانوي.. يعيش كلاهما مع والدتهما. لا يلتقي بهما سوى مرة واحدة كل شهر، فهما يعيشان في مدينة بعيدة عنه.

تتصل سكرتيرة عادل هاتفيا لتخبره عن مواعيد محاضراته اليوم وتعرف ما يجب عليها إعداده من مذكرات لطلابه كي تقوم بتصويره وتجهيزه.

بعدها يتحرك عادل ليبدأ يومه. دقائق قليلة ويستعد ثم يأخذ معه ما طلبته السكرتيرة ويخرج.

منزل عادل رغم ثرائه يبدوا مهجورا، ليس به سوى غرفة نوم للأطفال و طقم صالون لاستقبال الضيوف.. لا تابلوهات أو شيء يزين الحائط إلا صور أبنائه، التي يودعها كل يوم قبل الذهاب إلى عمله .يعمل عادل في مركز كبير للتعليم الخاص أو كما يشاع مركز دروس خصوصية؛ ما يقارب عشرة ساعات يوميا بعدها؛ يمضي وقته مع صديقه على المقهى، ثم يعود لمنزله على موعد النوم.

ما زال يتولى الإنفاق على زوجته وأولاده كما لم يفترقا، يدعي عادل أنه لن يتزوج لحبه الشديد لأولاده، لكن البعض يقول إنه ينتظر اللحظة التي ستوافق فيها زوجته على الرجوع إليه مرة أخرى، ولن يرتبط ما دامت هي لم ترتبط بغيره.

حياته فارغة لا يملأها إلا اتصال هاتفي مع أولاده أو زيارة لهم.

(6)

ارتفع صوت سارة وهي تقول بعصبية "لا تحاول التفلت من مسئوليتك.. اتفقنا سابقا أنك ستتولى أمور الأولاد يومًا وأنا أتولاها آخر.. فلا تحاول تجاهل ما عليك.. لأني لن أتحمله.. اتفقنا أن تكون الأمور كلها مناصفة"؛ خفضت صوتها قليلا وتابعت "لن أتحمل قسمتك من المسئولية.. إن تركت الأولاد؛ لن أذهب بهم إلى المدرسة".

كلما ارتفع صوتها عليه، كلما شعر بالضيق والاختناق من وجودها.. لكن ماذا يفعل؟ فإذا طلقها دفع لها الكثير مؤخرا، غير أنها ربما ذهبت ببناته إلى حيث لا يعلم.

الرجال أيضا يخشون ابتعاد أبنائهم عنهم، إن لم يكن حبا وتعلقا بهم؛ فخوفا من أن يعيروا بهم يوما ما. يخشون أن تربى بناتهم مع رجال غرباء، لا يضمنون إلى أي مدى سيصونهن. لذلك حرص سعيد أن تبقى سارة تحت ظله.. ليس من أجله لكن من أجل بناته، فكان يخضع لتسلطها وتعنتها حتى صارت تعامله الند بالند والكلمة بالكلمة. لكن اليوم لديه اجتماع هام.. ماذا لو قامت هي بتوصيل البنات، عليه أن يصل باكرا لحضور مؤتمر هام في العاصمة ولكي يفعل ذلك كان عليه أن يخرج قبل موعد ابنتيه بساعة على الأقل.. بعد جدال طويل بينهما، قالت سارة بلهجة حازمة : 1500 جنيه

- لما؟

- كي تذهب لعملك وأقوم برعاية البنات.

أخرج المبلغ من حافظته وهو يكاد ينفجر من أسلوبها الانتهازي.

وضعت النقود في حقيبتها، ثم قالت له بابتسامة مداعبة وعينان تشع منهما فرحة الانتصار:

- احترس أثناء القيادة.. نريد عودتك سالما.

فقال وهو يتجاهل نظراتها : بإذن الله.

ترك البيت وانصرف وكأنه أسير انتهى أمر اعتقاله.

أما هي فكانت ترى في ابتزازه انتقاما لها، لكبريائها عندما قرر أن تخبره عن كل صغيرة وكبيرة عن راتبها.. أخبرها أن الحياة ستكون مناصفة بينهما؛ تشارك فيها قدر ما يشارك، ليصلا لمستوى حياة مرضي لكلاهما، هكذا أخبرها في البداية، لكنها عرفت انه يستغلها ليصل إلى ما يرضيه وحده، فلا رأي لها ولا خطة في حياتها معه، إنها تدفع لأنها التزمت بذلك وحتى تسير السفينة وتستمر الحياة.

تشغل سارة منصب هام في شركة أدوية عملت بها منذ التخرج. تزوجت سعيد بطريقة تقليدية للغاية. لم تكن لها نظرة محددة لحياتها بعد الزواج؛ لكنها حددت مواصفات الرجل الذي تبتغيه زوجا.. سن مناسب، مركز مرموق، وميسور ماديا فقط. حينما تقدم لها سعيد وجدت فيه ما تحتاجه ولم تلتفت لشيء آخر وتم الزواج، لكنها بعد الزواج اكتشفت أن اليسر المادي لا يعني الغنى والاكتفاء، لكنه أحيانا يعني الرغبة في الوصول للمزيد.

اشترط عليها سعيد أن الحياة مشاركة بينهما، نصف ونصف كي يصلا لطموحهما وتحقيق المزيد من كل شيء في الحياة. كانت ساذجة بما يكفي لتثق به وتصدقه وتعطيه نصف راتبها بداية كل شهر، ثم اكتشفت الحقيقة بعد سنوات حينما احتاجت المال لشراء سيارة خاصة ورأت رد فعله، وتوقفت عن إعطائه المال لتشتريها بنظام الدفع الشهري.

(7)

في بيت زينة يعم الصمت فالأبناء يتابعان دروسهما في هدوء، والأب مشغول في متابعة صفحته على إحدى وسائل التواصل الاجتماعي. أما زينة فتجلس مع أبنائها تتابع دروسهم،

ينادي سليم زينة: ألم تصنعي حلوى اليوم؟

تتحرك في صمت لتحضر له طبقا. لم تلومه أو تعاتبه على ما قاله لها في مكالمته الهاتفية.. المرة الوحيدة التي يتصل بها.. أحرجها وجرحها لأنها طلبت الاهتمام؛ وعاد إلى البيت وكأن شيئا لم يكن.. لما يظن بعض الناس أن مشاعرهم من زجاج ومشاعر الآخرين من حجارة.

تعود بنفس الصمت، إلى الأولاد؛

في بداية الزواج كانت تشعر بالسعادة إذا ما طلب منها سليم أن تُحضّر له شيئا أو تقوم لأجله بأي عمل، لقد كانت خفيفة ذات عافية أفضل ولم تكن المسئوليات متراكمة عليها بهذا الشكل، أما الآن فتود لو تصرخ في وجه سليم و تقول "كفى قم واخدم نفسك لقد أنهكت قواي في حين أنك لا تقوم بأي عمل بعد الوظيفة".

أنهكتها الحياة ومتاعبها.. ما هو مطلوب في اليوم يحتاج يومان كي يتم وهو لا يلتفت شاكرا أو معتذرا.. كأنه لا يرى أبنائه يكبرون حوله ومطالبهم تزيد واهتماماتهم تتسع وعليها أن تظل متابعة لحياتهم، انه حاضر غائب ملت طلب التعاون أو المساندة دائما يقول

-... أنتِ لها.. يكفيني أنا العمل خارج المنزل.. وأنتِ داخله.

لكن الحقيقة أن زينة كانت داخل البيت وخارجه، فهي من تذهب لتحضر يوسف من دروسه وتذهب به مع أخته مرتين في الأسبوع إلى النادي، وتنتظر حتى تعود بهما وتأخذهما للتسوق وحدها؛ في حين يمكن أن يذهب هو لزيارة والدته فقط. لقد تخيل سليم أنه يكفيه إحضار المال ليؤدي دوره في رعاية أسرته. أخبرتها أمها سابقا أن الزواج مسئولية مرهقة، يقويها عليها زوج متفهم ومتعاون.. لكن أين زوجها مما أخبرتها به أمها. لم تكن تحتاج منه القيام بعمل لمساعدتها، لكنها أرادت الحب الذي لم تعد تجده منه. لقد صار جافا معها حتى باتت كل كلماته تجرحها،

وإن كانت مجرد كلمات عادية، صارت ترى خدمته قهرا وحديثه أمرا.. لأنها فقط لم تجد فيهما مودة أو حب.

يهبط الحزن على ملامحها من هول ما تفكر به، تستعيد شعورها بالوحدة فتتحرك نحو طفليها تقبلهم وتضمهم إليها بحنان.

وسليم بغرفة المعيشة يتابع التلفاز، ويأكل المكسرات. كان يشعر بانشغالها عنه، لكنه لم يتحدث إليها وفضل أن ينشغل بأشياء أخرى، ربما لو تحدث إليها.. لكان أفضل لهما. تدق الساعة الحادية عشرة وينام الطفلان، وتظل لوقت طويل متيقظة؛ كأنها تنتظر ذلك المجهول الذي تبحث عنه.

(8)

مازالت سارة تنتظر عودة سعيد.. من المعتاد أن يعود من الاجتماعات المماثلة قبل التاسعة مساء، لكنها تخطت العاشرة ولم يحضر. هاتفته لتطمئن، أخبرها أنه لم ينته سوى منذ دقائق ليلة.. لذلك سيضطر للمبيت، ليس هذه الليلة فقط، لكن لمدة ثلاث ليال أخرى.

أغلقت الهاتف ولم تكترث، لا يهم إن غاب ليلة أو أكثر طالما سيعود بسلام. شيء في قلبها جعلها لا تغفو تلك الليلة ربما كانت قلقة لاختلاف عادته.. ربما أحست أنها لم تأخذ منه ما يكفي لتتحمل المسئولية نظير غيابه تلك المدة.. شيء ما جعلها تعاود الاتصال ثانية.

- أهلا.. ما المشكلة؟

- لا مشاكل.. لكني كنت أتساءل فقط.. كيف ستمضي ليلتك؟

فقال بضيق...

- سأمضيها في غرفتي بالفندق حتى الصباح.. هل تفكرين بشيء آخر يمكن فعله؟

فقالت وقد أصابها الملل: لا شيء استمتع بوقتك

ورغم اتصالها به إلا أنها مازالت قلقة، شيء ما يجعلها لا تشعر بالاطمئنان.

كان سعيد وحده بغرفته بالفندق، لكنه لم يكن وحده فعلا في المؤتمر.. لقد كانت معه امرأة أخرى.. امرأة، لديه خطة وهدف آخر معها. ربما لذلك شعر بالانزعاج من مكالمة زوجته، فهي تشغله عما يفكر فيه وتذكره بأوقات عصيبة قد يواجهها عندما تعلم سارة بما يفعله دون علمها.

(9)

رحمة امرأة في بداية الثلاثينات وزوجها فتحي جاوز الأربعين بقليل. تستعد رحمة لاستلام عملها الجديد في صيدلية زينة صباح الغد، رغم تردد فتحي بين القبول والرفض فهو يخشى عليها الإرهاق بعمل إضافي مع عملها المنزلي وهي تصر بسعادة لإحساسها بالفراغ الشديد لعدم وجود أطفال لديها.

في الصباح التالي تلتقي رحمة وزينة في الصيدلية تخبرها بما هو مطلوب منها، كانت السعادة والبشاشة واضحتان جدا في كل كلمة وكل خطوة تخطوها رحمة؛ مما دعا زينة للدهشة، لكنها لم تتحدث إليها؛

تلك المرأة استفزت مشاعرها كثيرا حتى فاضت عليها بما تشعر به من رضا وسعادة.. لكن لما هي سعيدة. إن ما تقوم به عمل بسيط لا يحتاج خبرة أو كفاءة، وما ستتقاضاه مبلغ زهيد إذا ما قورن بأسعار السوق، كيف تسعد لهذه الدرجة وهي تفقد أعظم شيء تطلبه كل امرأة متزوجة.. انه الأطفال.

عند نهاية فترة العمل لاحظت زينة زوج رحمة وهو ينتظرها بالخارج، كان يرتدي زي عامل نظافة ويبدو من مظهره أنه يعمل في جهة حكومية. خرجت إليه مسرعة وكأنها تنتظر عودته وانصرفا. تابعتهما حتى اختفيا عن نظرها؛ ثم انصرفت بسيارتها إلى المتجر لتشتري طلبات المنزل ومنه إلى مركز تعليمي حيث تنتظر ابنها حين تنتهي حصة الدرس؛ لتصحبه للمنزل وأثناء انتظارها؛ كانت لا تزال تشعر برغبة في البحث عن شيء مجهول ينقصها.. شعور مستمر.. لا يختفي ولو لساعات، شعور يجعلها ترغب في الدوران في الطرق بلا هدف أو توجيه؛ ربما تقابل ما تحتاجه مصادفة، ربما يكتب لها القدر ملاقاته وتحقيق السكينة التي ضاعت عن نفسها منذ سنين.

قطع ابنها أفكارها وهو يناديها "أمي"

- نعم.. اركب

وتحركت وهي تتحدث معه عما حدث له في يومه.

في المنزل كانت الساعة تدق السادسة

وسليم ينتظرها غاضبا؛ سألها :

- موعد غداءنا الساعة الخامسة.. لما التأخير؟

- مواعيد الولد تغيرت اليوم فكنت مضطرة لانتظاره.

- إذن فلتتصلي وتخبريني؛ كي لا أنتظرك.

- ولما لم تتصل أنت.. لما لم تحاول الاطمئنان علينا ربما قد حلت بنا فاجعة.

- أتجادلينني وأنتِ مخطئة.. وأشار إلى المطبخ كمن يشير لخادمه.. هيا أعدي الغداء.

كان الطفلان يتابعان الحديث ويشعران بالرأفة لحال أمهما لما تتحمل هذه الطريقة في المعاملة . ويرون أن والدهم كبير بما يكفي ليساعد نفسه في غيابها. لم تكن قد بدلت ملابسها بعد عندما بدأ هجومه عليها. أو التقطت أنفاسها أو وضعت متطلبات البيت التي اشترتها في أماكنها. هي الآن عليها إعداد الطعام أو بمعني اقرب للدقة تسخينه؛ فقد أعدته قبل خروجها صباحا؛ دخلت إلى المطبخ؛ وضعت الطعام في الفرن ثم بدلت ملابسها وبدأ في ترتيب ما اشترته.. تنبه الأولاد لغسل أيديهم والاستعداد لتناول الغداء.. وسليم منشغل في محادثة أحدهم عبر الانترنت.

لم يكن سليم يملك الوقت الكافي للاتصال بزوجته لأنه كان نائما. أي نوع من الرجال سليم، كل ما تسمعه من حكايات صديقاتها عنهم؛ يؤكد أن كل الرجال لا يختلفون عن سليم كثيرا؛ لذا لم تحاول أن تنشغل بإصلاح تعامله معها؛ أو تناقشه فيما يفعل.. واعتبرته جزءا من كماليات المنزل.. موجود فقط ليكتمل الشكل المثالي للأسرة أمام المجتمع. ولأنها تربت طفلة وحيدة دون أب لأن والدها مات في صغرها، وأمها كانت الرجل والمرأة معا في المنزل لذلك فقد استسلمت لما وضع عليها من مسئوليات.

كان سليم يغضب كلما رآها متعبة؛ وكلما غابت عنه.. إنه يريدها غير ذلك.. لا يحب تلك العيون المجهدة الذابلة في عيني زوجته؛ طلب منها التوقف عن العمل والتفرغ له ولأولادها حتى تنعم بجزء من الراحة؛ لكنها رفضت بإصرار بحجة أن الصيدلية ذكرى والدها ولن تتركها أو تترك العمل بها طالما هي على قيد الحياة. وأمام إصرارها لم يهددها بالطلاق مقابل ترك العمل كما يفعل كثيرون.. ربما لأنه خشي أن يكون الخيار الأفضل لها؛

لكنه اكتفى بقوله لها "طموحك ورغباتك.. على حساب راحتك؛ و ليس على حساب راحتي أنا.. لن أغفر أي تقصير في حقي".

لا يدري لما هي متعلقة بالماضي.. عليها أن تنتبه لصحتها أكثر.. أنها لا تقصر في شيء يخصه ..لكنها تذبل يوما بعد يوم واختفت لمعة عيناها

التي أحبها فيها.. حل مكانها حزن صامت وسكوت دائم. كانت تطلب منه المساعدة قبل ذلك.. ورغم أنه كان كثيرا ما يرفض فقد كانت تطلب.. لكنها بعد ذلك؛ توقفت عن طلب أي شيء منه. صارت تتجاهل وجوده وتشعره بالاستغناء عنه، وهذا ما زاد غضبه و قسوته معها.

(10)

عادل في زيارة لأولاده وزوجته يحاول إقناعها بالعودة للحياة معه من جديد.. لكنها لا تزال مصرة على الرفض وتؤكد له أنها لن تتراجع عن قرارها يوما، وعليه أن يبدأ حياة جديدة و يترك الأولاد معها وهو مطمئن.

استسلم عادل لقرار زوجته، وقرر أن يبدأ البحث عمن تشاركه حياته القادمة.. لم يكن رفض زوجته للعودة إليه مؤلما له بقدر ما تألم لأن أولاده سيعيشان مشتتان بينهما؛ لذا قرر أن تكون زوجته القادمة مقدرة رغبته في احتضان أولاده وضمهم إليه يوما ما.

مضت أسابيع وعادل بين عمله وجولاته مع صديقه في المدينة ليمضي وقته، ثم يعود إلى البيت عند موعد النوم.

ذات مرة.. عندما كان خارجا من عمله رأى زحاما وأصواتًا عالية حول سيارة أصابت صبيا في مثل عمر ابنه تقريبا.. فزع وكأن من أصيب هو ولده بالفعل وجرى نحوه يتفقد من هو.. فإذا به أحد تلاميذه.. اصطحبه في سيارة الإسعاف حتى يطمئن عليه.

وقبل انصراف السيارة بثواني تأتي والدة الصبي لتشاهد ولدها المصاب وتلحق بسيارتها سيارة الإسعاف.

كانت زينة هي أم الولد، يوسف المصاب؛ امرأة جميلة يبدوا عليها الهدوء.. كانت تمر بأقصى درجات الفزع.. لم تصرخ أو تبكي.. فقط شرود وخوف ارتسما على ملامحها دون كلمة واحدة.. عندما أخبرها عادل إنه سيصحبه في سيارة الإسعاف، أشارت برأسها ولم تتكلم.. فلا كلمات تسع المشاعر عندما تندفع مختلطة بين الخوف والقلق.. بين الحب واليأس والأمل.. كل الأفكار والأحزان القديمة.. خرجت دفعة واحدة؛ وهي تري فلذة كبدها محمولا على نقالة المرضى.. فاقدا للوعي. ورغم أن الشخص الوحيد الذي يمكنها الاتجاه إليه لطلب مساعدته.. خذلها كثيرا.. لكنها لا تعرف غيره؛ لها الحق في الاستناد إليه؛ وهي شبه منكسرة.

حاولت لوقت طويل الاتصال بزوجها ليكون معها في هذا الموقف الصعب، لكنها لم تجد ردا فربما كان هاتفه مثبتا على الوضع الصامت.

مضت ساعتان.. زينة وعادل يتابعان الأطباء وهم يسعفون يوسف؛ بين الحين الأخر تحاول الاتصال بزوجها؛ متى سيكون سندا لها إن لم يكن إلى جانبها في مثل الموقف كادت تبكي لأسباب كثيرة؛ إحساسها بالإهانة لتجاهل زوجها لها؛ وإحراجها من مساعدة رجل غريب عنها لها في حين أن زوجها نائم بالمنزل، وقلقها على ولدها الذي لم تعرف بعد مدى إصابته.

طلبت زينة من عادل أن ينصرف، لكنه رفض حتى يطمئن على حالة ابنها. لاحظ عادل عدم حضور والد الصبي أو أي شخص لمواساة زينة في مصيبتها، لم يكن يعلم أن زينة ابنة وحيدة وأن والدها متوف منذ كانت في الثامنة. أما أمها فسيدة مسنة خشيت أن تخبرها فيصيبها قلقها على يوسف بمكروه، ولم يكن يتوقع أيضا أن زوجها موجود ومقيم داخل البلاد؛ لكنه نائم وقد أغلق هاتفه منعا للإزعاج.

دار بخاطره أن تلك المرأة إما مطلقة أو أرملة، لم تكن ترتدي أي خاتم زواج، لكنه لم يكن يعلم أن خاتمها لم يعد يناسب أصبعها فأهملته، لأن زوجها لم يهتم باستبداله بآخر يناسب أصبعها.

لم يأت والد الصبي للاطمئنان عليه، ويبدو أن هذه الفكرة راقت له فنظر إليها وهي تحاول الاتصال برقم ما والحزن باد عليها. تري من يكون الذي تبحثين عنه بكل ذلك الشغف. تساءل لِمَ لَمْ يأت أحد ليكون إلى جوارها؟ فهي إن فقدت الزوج؛ فهل فقدت كل من يهتمون بها؟!

أخيرًا وبعد أكثر من ساعتين رن هاتفها، هناك شخص ما يهتم لأمرها، شخص ما تستطيع أخباره بمكانها.

عندما رآها عادل تبتعد كثيرا وهي ترد على الهاتف.

فقرر الاستئذان وانصرف بعدما اطمأن على حالة يوسف. أعطاها كارتا لتتصل به إذا طرأ أمر واحتاجت لمن يعاونها. شكرته ووضعت الكارت في حقيبتها دون النظر إليه.

(11)

بعد وقت قصير حضر سليم إلى المشفى.

كان يوسف قد أفاق من المخدر على ساق مكسورة وكدمات في الجسد والرأس. احتضن سليم يوسف مواسيا ورمق زوجته بنظرة ساخطة معاتبة؛ كأنها من أصابت ابنها في الحادث وليس قدره. جذبها من يدها إلى خارج الغرفة، ليعرف ماذا حدث لابنه وما أن عرف أن الولد أصيب قبل وصول أمه إليه حتى ألقى إليها بسيل من اللوم والاتهامات.. وقلبها مازال فزعا لما أصاب ولدها وهو يعد سهامه ليرمقها بها واحدا تلو الآخر. يمزق قلبها دون رحمة.

- أنتِ تأخرت عن الولد فأصيب.. أنتِ السبب.. كدتِ بإهمالك أن تتسببي في موت ابني. وما السبب في تأخرك.. إنها تلك الصيدلية التي طلبت منك مئات المرات ترك العمل بها ولم تستجيب.

شعرت زينة بارتباك وحزن، وللمرة الأولى تقرر أن تواجه وترفض أي اتهام.. فنظرت إلى عينيه بقوة لم يعتادها منها وقالت:

- لست سببا في شيء إنه قدره، وقد طمأننا الأطباء على حالته.. سيكون بخير.

والصيدلية هي الشيء الوحيد الذي يبقى لي من ذكرى أبي.. لن أفرط فيها، أو ابتعد عنها كما أخبرتك بذلك مئات المرات من قبل.

لم يتوقف سليم عن دفع سيل من الاتهامات بالإهمال والتقصير نحو زينة، لكنها جلست ساكنة تنتظر انتهاء العاصفة، التي كادت تقتلع قلبها ندما على سنوات عمرها، التي أفنتها مع رجل مثل سليم. وحين عم الصمت بادرته قائلة بهدوء:

- أنا مسئولة عن إصابته وأيضا مسئولة عن متابعة علاجه.. وأشارت نحو الباب وهي تتابع:

- شكرا كثيرا لزيارتك، لقد انتهى وقتها.

اقترب منها.. حاول أن يخفض صوته وهو يقول:

- ماذا تقولين.. ماذا أصابك؟

ابتعدت وهي تمسح دموعها التي انهارت مع انهيار كل جزء فيها.. جلست على أقرب مقعد منها.. ماذا أصابها؟ إنها حقا لا تدري.. لقد خرجت منها للتو شخصية أخرى غير التي اعتادت ترويضها منذ تزوجته.. لكن مرحبا بها فقد حضرت في الوقت المناسب وعليها ألا

تحاول ترويضها مرة أخرى. يجب أن تظل حرة لتدافع عنها.. عن حياتها.. قلت غزارة دموعها.. وانخفضت سرعة أنفاسها قليلا؛ لترفع رأسها و تتابع قائلة:

- لم يصبني شيء لكن قد نفد رصيدك من الرحمة لدي وذلك بعد استنفاد رصيدي الحب والاحترام منذ سنوات.. اكتست كل الذكريات الجميلة التي عشتها معك.. بقسوتك؛ فلم تعد تجدي.. لم يعد لها نفع في إمدادي بالسعادة التي تمنيتها معك.. أخبرك بكل صراحة الآن انك ..لست الرجل الذي تمنيته.. تمنيت أن أكون تحت ظله.. حريتي صارت أفضل لي كثيرا من بقائي معك.

إنها المرة الأولى التي يود لو يصفع وجهها بيديه.. ربما ظنها جهازا أصابه العطل.. وعليه خبطه كي يعود لاتزانه.. لكنه امتنع لسببين الأول؛ أن يخاف دائما على مظهره أمام الآخرين والسبب الثاني نظرتها القوية أليه.. لم تكن نظرة امرأة سيغير فيها الضرب شيئا واكتفي بأن يقول بصوت حرص على خفضه:

- أجننتي.. ماذا تقولين؟

- أخبرتك، أن تتركني وشأني؛ ما عاد شيئا يربطنا غير ورقة، إن شئت أبقيتها وإن شئت أنهيتها.. الأمر عندي سيان، لكني من هذه اللحظة، قد اعتبرت نفسي طالق منك.

كانت كلماتها لسليم فاصلة؛ ألقت بها ثقلا كبيرا من فوق كاهلها.. ثقلا حملته لسنوات.. لم يعد يفرق إذا كان لها شريك من عدمه طالما، كان الحمل على كاهلها وحدها.. كثيرا ما كانت تفكر في الانفصال؛ لكنها لم تفصح عن أفكارها ولو لأمها؛ تخشى مجهولا بعده.. تخشى مجتمعا يتهمها بالكفران ورجالا قد يطمعون بها وآخرون يقاطعونها خشية أن تفسد نسائهم.. كيف سيكون الحال إذا ما كبرت ابنتها وتقدم لها خاطب؛ ثم علم أن أمها لم تصبر وتتحمل إهمال رجل لها، وفضلت الطلاق. كانت تخشى ردة فعل سليم إذا ما طلبت منه ذلك؛ ربما حرمها من أولادها.

سكنت فكرة الطلاق عقلها لشهور طويلة؛ لكنها لم تنتقل إلى لسانها؛ إلا في هذه اللحظة.

استفسر من الأطباء عن حالة ولده، رحل وتركها وحدها مرة أخرى.. وكأنه يعاقبها على ما تجرأت ونطقت به بعد طول كتمان. أما هي فبقيت إلى جوار ولدها.

كانت كل صباح تبدأ يومها متمنية أن تحدث لها مفاجأة أو صدمة؛ تجعلها تفيق من ذلك الحلم الذي يعيشها -حياتها معه- أكثر مما تعيشه. اليوم أصابتها صدمة؛ هل ستخرج ذاك الحلم المظلم من حياتها حقا؟ أم ستذوب فيه أكثر وتتوه أكثر وتفقد ذاتها التي طالما بحثت عنها أكثر وأكثر.

(12)

ترك سليم ملك مع والدتها في المستشفى.. ذهب إلى بيت أمه فلم يعد هناك من يمضي معه الوقت في بيته. لاحظت الغضب عليه، فأخبرها بالحادث الذي أصاب يوسف؛ وأن والدته ستظل معه، أما ملك فستذهب إلى جدتها. شعر بالحرج أن يخبرها بما حدث بينه وبين زوجته، وأنها أعلنت رغبتها في الانفصال عنه.. قررت هجره للأبد.. أوحى إلى نفسه أن حديثها كان سببه الغضب والحزن على ولدها؛ وستتراجع عنه بمجرد أن يتعافى ابنها.. كان يحمل في قلبه مرارة وانكسارا؛ لأنها طلبت الطلاق؛ فهو يرى نفسه الرجل المثالي الذي يكفي بيته و يكتفي بزوجته ولا يضرب ولا يقبح. كيف تطلب منه زوجته الانفصال، ثم تخبره أنها لا تريد الورقة.. إنها فقط سئمت منه وتريد الابتعاد. يتعجب من حديثها كلما ذكره ولا يستطيع أن يصل لسبب له!

فهو دائما على صواب.. هكذا يعتقد.

قالت أمه: أواثق أن ما أخبرتني به هو الحقيقة فقط؟

- نعم

- ماذا قال الأطباء عن حالة يوسف؟.. هل سيواجه إعاقة؟

انتفض فزعا وقال: لم يخبرنا أحد بذلك.. الوضع مطمئن

- طالما الوضع مطمئن؛ لما لا تطمئن؟.. لما أنت شارد؟

رغم محاولات أمه لمعرفة ما به لم يخبرها.. فهو يرى الحديث فيه إهانة له لا يجب أن يكررها.

عاد إلى شقته متأخرا.. شغل التلفاز وجلس كعادته،

- فجأة نادى: زينة

انتبه أنها ليست موجودة.. تجدد شعوره بالغضب.. أغلق الهاتف والتلفاز وتوجه للنوم.. لكن كيف ينام وسط ذلك السكون والوحدة التي لم يعتادها؟

في اليوم التالي كانت زينة مع ولدها بالمستشفى؛ دخلت عليها إحدى العاملات تحمل باقة من الورد. إنها من أجل يوسف؛ قرأت البطاقة "تمنياتي بالشفاء العاجل.. عادل الليثي، مدرس اللغة الفرنسية"

سألت يوسف عنه فأخبرها أنه معلمه.. أخرجت الكارت من حقيبتها تراجع الاسم.. إنه هو

فقالت: يا للذوق الرفيع...

بعد وقت قصير حضر عادل لزيارة يوسف.. كانت حالته تتحسن.. لاحظ أن زينة مازالت معه وحدها. شكرته لمساعدته لها.. ولم تطل الحديث معه.. فقد كانت تصرفاته تذكرها بشيء يؤلمها.. شيء اسمه التقصير ونقيضه هو الاهتمام المتناهي الذي تراه من عادل؛ أليست الأشياء بضدها تتضح؟!

أما عادل فقد بدأت فكرة ما تشغل عقله.. فكرة لم تكتمل محاطة بكثير من التساؤلات حول زينة. كان يود التحدث إليها أكثر؛ لكن لا الوقت ولا الظرف يناسب ذلك. أنهى زيارته واستأذن آملا أن يلقاها مرة أخرى.

انتظرت زينة عدة أيام حتى انهي يوسف علاجه في المستشفى وحصل على إذن بالخروج. اتخذ سليم من قرار زوجته سببا كافيا يمنعه من زيارة ابنه في المستشفى.

بعد انتهاء فترة العلاج بالمستشفى؛ عادت لتستقر في بيت والدتها مع ولدها وابنتها.

(13)

مضت الأيام تباعا وسعيد يعد للزواج بموظفة لديه. وسارة تتجاهل انشغاله المتكرر وأعذاره المستمرة للتغيب أكثر من المعتاد عن المنزل.. حاولت أن تصدق أعذاره؛ لكنها حينما تحدثه في تفاصيل العمل الذي أبعده عنهم كان يتهرب ولا يعطي أي تفاصيل شافية؛ ازدادت شكوكها في تصرفاته، خاصة مع اهتمامه بتفاصيل لم يكن يهتم بها من قبل في حياتهما معا.. وفي بناتها؛ تفاصيل صغيرة يعلق عليها فيها شخصيا. لقد صار يتصيد أي تقصير أو نقص.. ليتحدث فيه. يوبخ سارة يقول لها: أصبحت نحيلة بدرجة تشعر بالشفقة.

بالرغم أنها لم تكن كذلك فهي الأكثر رشاقة و أناقة بين من يعرفهم.

أصبح يرى تدلل ابنتيه معه.. تدليلا زائدا السبب فيه والدتهم. و هكذا رغم أن لا شيء يذكر قد تغير فيهن أو في سلوكهن.

اعتقدت أن تذمره لأنها قررت التوقف عن إعطائه المزيد من أموالها، كما كانت تفعل منذ بداية الزواج لأنه رفض شراء السيارة التي طلبتها منه. وربما لأنها صارت تعامله بجفاء شديد.. لأنه رأت فيه رجلا مخادعا كاذبا؛ لكنها رغم ذلك لا تنس أنه والد بناتها وأن بينهما عشرة

سنوات.. وإذا خدعها فترة من الزمن فقد اكتشفت خدعته ولتسير الحياة رغم كل جديد؛ هكذا قررت. إنها لا تزال في عملها ومازالت تملك دخلا جيدا.. لن تعطيه شيئا من أموالها وسيتم هو الاتفاق بأن الحياة مناصفة في بقية المهام مقابل خدعته لها.. وما ذهب ستعوضه.

لكن سعيد لم تعجبه الشخصية الجديدة التي تحولت لها سارة.. لم يعد ير أنه الرجل في بيته ..صار يرى في كل تصرفاتها تعاليا.. يبدو أن بعض الرجال لا يرون رجولتهم إلا في كسر المرأة.. لكن كيف تكسر وهي غصن إذا هبت النسائم يميل..لا يقاوم.

ربما غضب لأنها منعته جزء كبير من راتبها كان يتقاضاه منها بطيب نفس أول كل شهر يضيفه إلى حسابه البنكي الذي يتزايد يوما بعد يوم؛ لكن ما علاقة ذلك بسعيه للزواج بأخرى.. إنها مجرد محاولة جديدة لكسرها.. لهزيمتها؛ بعدما اكتشفت محاولته الأولى لخداعها. لكن هذه المرة كان يخدع نفسه بدلا من خداعها

(14)

دخلت رحمة إلى الصيدلية والبشاشة لا تختفي عن ملامحها، حتى أدرك الجميع أن أمرًا سعيدا قد طرأ عليها فنادتها زينة وأشارت إليها تقترب وقالت تمازحها،

- ألا أسعدتينا لسعادتك؟

اقتربت رحمة من زينة وهمست

- اليوم سنوية زواجي وانتظر مفاجأة من زوجي.

وأضافت.. ربما يأتي اليوم باكرا لاصطحابي، فليتك تسمحين لي بالانصراف عندما يأتي ، سأنجز ما علي فعله في أسرع وقت.

أجابت زينة بابتسامة واضحة: مؤكد

ذهبت رحمة لمتابعة عملها وشردت زينة في أحوالها التي لا تعرف لها حلا ولا تستطيع أن تحدد لها نهاية، رغم كل ما يشغلها تعاني من الفراغ والوحدة؛ ليس فراغ الوقت، لكن فراغ القلب والوجدان من أحدهم.. يقدم لها و لو جزء قليل من الحب والاهتمام. صارت الحياة أكثر روتينية وملالا، إنها لا تملك وقتا تفكر فيه فيما يجب أن تفعل وفيما تحب أن

تفعل، لكنها تفعل فقط، ما هو متوجب عليها أن تفعله؛ وما هو موجود لتفعله؛ وما تركه غيرها عليها، رغم انه واجبهم.إنها ليست موجودة في حياتها؛ إنها غائبة عنها؛ لأنها تدور حول دائرة تتحرك فيها دون هدف أو تخطيط .

إنها تنتظر من زوجها أي اهتمام يصلح ما أفسده داخلها، لكنه لا يفعل شيئا غير التجاهل. لا يتجاهلها فقط بل يتجاهل أبناءه.. فان كانت هي قد أعفته مما لها عليه .. فهل أعفى نفسه من حقوق أبنائه عنده. كلما زاد تجاهل سليم لها؛ كلما زادت إصرارا على انفصالها عنه.

لم تكن قد اعتادت الابتعاد عن بيتها، أحيانا.. كانت تتذكر دائما سنوات زواجها الأولى.. كم تمنت لو عادت حياتها معه كما بدأت، سنوات طويلة أمضتها معه، هل تنساها بسهولة وتمحو أثارها من ذاكرتها؟.. لكن ذلك بدا كالمستحيل.

(15)

سليم الآن يعيش وحيدا في شقته بعد انتقال زينة وأولادها إلى بيت والدتها.. رغم أن كل شيء يتحرك على غير رغبته، إلا أنه أبى إلا أن تعود بمفردها كما قررت الذهاب بمفردها، إنه لم يطردها حتى يتودد إليها لتعود. واعتقد أن مجرد امتناعه عن إعطائها المال من أجل حياتها وحياة أولادهما كاف لأن تعود شاكرة لفضله عليها،

كان إذا غلبه الغيظ من سوء حاله قال "ألم يكفها مني أن يدي لا تمتد إليها بالعقاب، ألم يكفها مني بأني صمت سنوات وهي تعاندني وتصر على العمل في صيدلية والدها.. ماذا تريد مني، لن أذهب لأسترضيها، مهما حدث"

ولم يكن يحاول الاتصال للاطمئنان على حالة ولده المصاب، فهو يثق تمام الثقة أن زينة سترعاه وتباشره تمام الرعاية حتى يتعافى، هكذا اعتاد منها أن تحمل كل شيء عنه ولا تئن، انه يراها قوية، قوية أكثر مما تمنى. ورغم اعتماده على قوتها في إدارة كل شؤون البيت صغيرة كانت أم كبيرة. إلا أنه تمنى كثيرا لو يحطم ولو قدرًا قليلًا من قوتها. قوتها.. التي يشعر أحيانا أنها تطغى على جزء من رجولته. لا تميل ضعفا إذا

أراد ذلك. توقفت منذ سنوات عن طلب أي شيء منه.. توقفت عن التعبير عن شوقها إليه ورغبتها فيه. كانت فقط.. تستجيب، إذا طلب.. ما أثقل ذلك على نفسه!

يريد أن يشعر ككل الرجال بأنه سيدها الذي تعتمد عليه.. تحتاجه.. تهفو لأنفاسه، ولا تستطيع الفصل في أمر بدونه؛ ثم بعد ذلك يوبخها لجهلها أو لضعفها ويتركها غارقة في دموعها، مستمتعا بسيطرته؛ هكذا كانت الرجولة عند سليم، إنها السيطرة ولو بغير حق.

تناسى وهو يفكر رسائلها.. وتوددها؛ وشوقها لكلمة ود وحب منه. تناسى أن كثرة الرفض؛ تمنع الطلب مجددا وتفقد الأمل في الاستجابة. تصيب بالصمت.. الذي هو أشبه بصمت القبور.

إنه يشعر بفراغ كبير بدون أولاده؛ فقبلتهم على خده كل صباح وابتسامتهم له كانت تشعره بالنجاح والقوة، كان يشعر بالفخر بهم كلما رآهم، لكن ماذا سيكون موقفهم إذا ما ابتعد عنهم. هل يرون انه مقصر أم سيرمون بالمسؤولية على والدتهم لأنها من ترك البيت؟

(16)

بدأ يوسف يسترد عافيته رويدا رويدا؛ فقررت زينة أن تتابع معه دراسته كي لا يفوته أكثر مما فاته بسبب الحادث، لكن يوسف لا يزال غير قادر على مغادرة المنزل. ذهبت زينة إلى المركز التعليمي الذي يتابع فيه ولدها دروسه؛ تحاول أن تطلب من معلميه متابعة الدروس معه في المنزل، نظرا لحالته الصحية التي تمنعه من الحركة. لكنها لم تنجز أي شيء فقد أخبرتها السكرتيرة أن جميع المدرسين لديهم لا يوافقون على مثل هذا الطلب لأسباب تخصهم.

لم تكن تدري ماذا تفعل فقد بدأ النصف الثاني من العام الدراسي والأيام تمضي سريعا ويبدو أن ولدها ستطول فترة علاجه في المنزل. تحدثت إلى يوسف بشأن المعلم الذي رافقه إلى المستشفى وانتظر حتى يطمئن عليه وثم أخبرته أن السكرتيرة أخبرتها أنه أيضا لن يقبل الحضور للمنزل.

فكرت بالاتصال به شخصيا لتطلب منه معاونتها، وظنت انه ربما لا يتذكرها .لكن زينة لم تكن تعلم أن هناك أمر قد ربط بين المعلم وبين

يوسف؛ لقد قرر منذ إصابته أن يهتم به اهتمامه بولده الذي افترق عنه. ضغطت زر الاتصال؛ وانتظرت.

- أهلا

- أهلا.. أستاذ عادل؟

- نعم انه هو

- معك والدة الطالب يوسف سليم الذي.

قاطعها عادل

- كيف حاله الآن.. أرجو أن يكون بخير

- ليس تماما؛ ولن يستطيع متابعة دروسه في المركز أو المدرسة قبل شهرين مازال عاجزا عن الحركة.

لم يفكر عادل قبل أن يقول

- أنا لا أتخلى عن أولادي.

لكن زينة بادرته

- لقد ذهبت إلى المركز لأطلب من المعلمين المتابعة معه بالمنزل، لكنهم أخبروني أنكم لا توافقون على الذهاب للمنزل.

- تلك هي القاعدة لكني سأبحث وقتي مع السكرتيرة لأجد وقتا ليوسف.

وتابع

- هل اتصل بك غدا لنحدد الموعد؟

- بكل ترحيب

وأنهى حديثه معها؛ بكلمة هزتها.. جعلت أحزانها تتقلب من جديد.. جعلتها تذكر زوجها من جديد.. لكنها رغم حزنها ابتسمت لسماعها.. ابتسامة تحمل النقيضين الحزن والسعادة.

كانت المكالمة بالنسبة لزينة كسقوط حمل كبير من فوق كاهلها؛ خاصة أن عادل أخبرها، أنه سيجد لها معلمون كفء؛ ليتابعوا معه بقية المواد. أنها المرة الأولى التي تتلقى فيها مساعدة من شخص آخر، المرة الأولى التي تسمع فيها عبارة "لا تقلقي ودعي الأمر لي" شعور جديد استولى على نفسها انه شعور بالطمأنينة. شعور جعلها تتذكر المرة الأولى التي وقف فيها إلى جانبها.. شعور يعوض ما تشعر به من نقصان مع زوجها..

(17)

- عادت رحمة في اليوم التالي لسنوية زواجها بثوب جديد. كانت في غاية السعادة به؛ كأنها تود لو تخبر الجميع كم هي سعيدة وكم يجتهد زوجها لإسعادها، ابتسمت لها زينة وهي تقول

- أظنها هدية الأمس

فقالت رحمة بفخر :

نعم إنها كذلك واقتربت من زينة وهي تهمس:

لا تسعدني الهدية بقدر سعادتي بحرصه على إحضارها لي في نفس الموعد من كل عام ، دون أن يمنعه عنها أي عذر؛ إذا كان فقر أو نسيان، وسرحت عيناها وهي تتابع:

أراه كل يوم وهو يضع مبلغ من المال داخل جيب إحدى ستراته التي لا يرتديها إلا قليلا وفي اليوم المحدد يأخذ المال كله ليشتري لي هديتي، إنها تصلني منه كل يوم وهو يقتطعها من ماله القليل.

مازالت رحمة محورًا لدهشة زينة فكيف لذلك الرجل الفقير الذي لا يملك إلا الكفاف أن يحقق لها تلك السعادة التي تنطق بها كل نظرة من عيونها

وكل همسة في صوتها. إنه الاهتمام بالقدر المستطاع من الجهد والإمكانيات لا أكثر ولا أقل. زوج رحمة لا يبخل بشيء عنها، ولا يكلف نفسه فوق طاقتها. إنه العطاء الذي ينتظره كل محب، ليتثبت أنه لم يكن مخطئا عندما اختار ولم يكن أحمقا، وهو يعطي ويتنازل دون تفكير.

لم تعرف زينة أن المجهول الذي تشعر بافتقاده ولا تستطيع تحديده؛ هو الاهتمام.. الاهتمام الغير مشروط بواجب أو مسئولية؛ انه بدافع الحب والاحتواء فقط؛ وهذا ما كانت تجده رحمة في كل لحظة تقضيها مع زوجها. زوجها الذي يكسب بالكاد قوت يومه ثم يدخر منه القليل على القليل؛ ليشتري لزوجته هدية يدخل بها السرور على نفسها.

أما زينة فمع كل ما تملكه من مال وجمال وعلم وكل ما تحتاجه امرأة؛ لتكون أميرة بين بقية النساء، فقد فقدت الاهتمام من زوجها الذي تزوجها رغبة في امتلاكها. وكانت فقدته قبلا حين مات والدها وهي طفلة وقامت والدتها مكانه؛ فنالت زينة صورة غير واضحة ودور غير مكتمل لكل من الأب والأم وتناولت زينة دور أمها في حياتها لتقيمه كما هو دون تغيير في حياتها مع زوجها، ولم تدرك أن والدتها قامت بهذا الدور مضطرة بعد وفاة الزوج.. إلا بعد فوات الأوان.

(18)

لم يرجُ أكثر من ذلك.. أراد أن يعرف المزيد عنها.. يتمنى أن يصدق اعتقاده؛ وتكون امرأة وحيدة . اليوم سيذهب إلى بيتها.. لقد أخبرته بالعنوان عندما اتصل بها.. ليحدد موعد الدروس.. يستعد الآن للذهاب إليها.. إنه سيذهب لتدريس الفرنسية لابنها يوسف.

للمرة الأولى منذ شهور؛ يبالغ في الاهتمام بمظهره.. يضغط جرس الباب متوترا؛ يود أن تفتح هي الباب؛ لكنه يخشى أن تلاحظ توتره.. وقف منتظرًا الدخول.. فتحت له امرأة تخطت الستين.. ظهرت البشاشة في وجهها.

ابتسم عادل قائلا: أنا مدرس اللغة الفرنسية.

انتبهت السيدة: تفضل.. بانتظارك

دخل الشقة، وتوجهت به السيدة إلى غرفة يوسف: وقالت للمرة الثانية: تفضل.. وقبل أن يجلس عادل ، تابعت السيدة: أي شراب تحبه أكثر.. وابتسمت.

- سأحضره لك سريعا

لم يتخلص من توتره بعد فقال: شكرا.. لا شيء

قالت السيدة وقد غلبتها مشاعر الأمومة: إذا كان لاشيء؛ فلتشرب اللبن.. ربما لم تتناول إفطارك بعد.

ابتسم ولم يعلق.. وذهبت لتحضر له اللبن.

حديثها جعله يتخلص من التوتر الذي كان يشعر به.. وبدأ الدرس مع يوسف.

شعر بالارتياح الشديد وهو يتحدث مع تلك العجوز.. جلسته مع يوسف واقترابه منه؛ كان يعوضه أسرته.

أخيرا.. دخل منزل به حياة.

تابع عادل مع يوسف اللغة الفرنسية؛ واتفق مع عدد من أصدقائه المعلمين على الاعتناء به في بقية المواد، خلال الشهرين التاليين.. كان يتحرك بحماس غير معتاد بالنسبة له.. طاقة غريبة كانت تنبعث داخله، كلما تذكر تلك السيدة "زينة" وهي تجلس وحيدة تنتظر أن تسمع خبرا يطمئنها على حالة ابنها، ظن عادل أنها ربما كانت أرملة أو مطلقة؛ فكيف لأب، أن يترك ابنه كل هذا الوقت دون الاطمئنان عليه حتى وإن كان منفصلا عن زوجته، إلا إذا عُدم الإحساس بمسؤوليته.

كلما تكرر تردده على يوسف في بيت جدته؛ لمتابعة الدروس معه؛ يزداد يقينه بأنها امرأة وحيدة.

سأل يوسف عن والده؛ فأخبره أنه يعمل في أحد البنوك المعروفة؛ لكنه لا يعيش معهم. لم يتعجب يوسف من السؤال فقد استخدمه عادل كتدريب أثناء الشرح. اتخذ إجابة يوسف مسوغا؛ ليحرر مشاعره تجاهها أكثر.

تحدث إليها ذات يوم عما إذا كانت قد طالبت صاحب السيارة التي صدمت يوسف بتعويض؟ وأنه على استعداد أن يجد لها محاميا جادا ليتابع القضية. ورغم أن زينة رفضت الفكرة واكتفت أن ولدها بخير إلا أن اهتمامه شغل عقلها كثيرا؛ إنها المرة الثانية التي تشعر فيها بذلك الشعور الغريب، إحساس لا يوصف بالطمأنينة والارتياح، إحساس بالسعادة. ذلك الشعور بفقدان شيء هام في حياتها ولا تعرف ما هو صار يتلاشى شيئا فشيئا.

(19)

مضى شهر كامل على غياب زينة عن منزلها ورغم ذلك؛ سليم يرفض مجرد محاولة لإصلاح ما بينهما؛ إنه لم يحاول الاتصال للاطمئنان على حالة ولده خشية أن تظن أنه يسترضيها لمراجعة نفسها. لم يفكر سليم في حق أولاده عليه من نفقة ورعاية واهتمام وتربية. لم يفكر أن تلك المرأة مازالت تحت عصمته أمام الله تعالى وأنه عليه كفايتها وحمايتها؛ حمايتها من كل شيء حتى نفسها.

لكن سليم قرر أن زينة امرأة ناشز؛ ليس لها أي شيء غير التجاهل منه؛ اعتقد أنها عاجلا أو آجلا ستعود نادمة على ما فعلته. لم يسأل سليم نفسه مرة؛ ماذا فعلت زينة لتستحق منه كل هذا الإهمال وكل تلك القسوة؟ هل رفضها ترك عملها بصيدلية والدها كاف لكل ذلك؟

للأسف لم يجد سليم من يدفعه لضم أولاده تحت عباءته بدلا من تمزقهم ووحدتهم، ولكنه وجد أم تقول إن لم تعُدْ فالبنات كثيرات تزوج.. إن فسد ما بينكما.. تزوج واتركها دون تجريح أو إهانة.

ليرد سليم قائلا: لن أتزوج غيرها فهي امرأة رائعة. لا استطيع أن أتخيل حياتي دونها؛ لكني لست أدري ماذا أصابها في الفترة الأخيرة، صارت ضيقة الصدر سريعة الغضب لما يستحق ولما لا يستحق.

الأم: لا تبالغ فكل النساء سواء.

سليم: ليست ككل النساء فهي كالجبال مهما يحدث لا تهتز ولا تصرخ، وما تركتها وأولادي إلا لثقتي فيها.

- هل تعلم زوجتك كل ما تحمله لها من شعورك هذا؟

- لا ولن

- إذا لن تعود

بدا تأثر أم سليم واضحا بكلمات ولدها، حتى فقدت رغبتها في الحديث إليه.

ظنته غير سعيد مع زوجته، ففرحت بهجرها وتمنت له امرأة أخرى. لكن عندما علمت بما يجول في صدره أشفقت على زينة؛ فهي كامرأة تعي جيدا حاجة المرأة إلى كلمة شكر أو حب وإعجاب من زوجها، مهما مضى على زواجها من سنوات. إنها تشتاق كل حين أن تشعر بالتقدير لمواصلة العطاء. والعطاء لابد وأن يقابله عطاء وإلا أصبح مذلة وعناء. وسليم يأخذ ليأخذ وليس كذلك وكفى؛ لكنه يتفضل على زينه بما تفعله لأجل رعاية بيته وأسرته.. أي شرع هذا؟!

دائما ما يفكر سليم فيما يجب على زينة أن تفعله؛ كان في حاجة ماسة أن يفكر أيضا فيما يجب عليه فعله، وهل هو فعلا أفضل زوج وأب، أم غير ذلك؟ هل يفعل ما يجب عليه فعله كاملا أم أنه مقصر ويحمل غيره أعباء يجب أن تكون على كاهله هو. ماذا يشغل بالها حتى تصبح ضيقة

الصدر.. سريعة الغضب؟ كان عليه أن يفكر؛ فيما يجب أن يفعله ليخفف عنها.. وإن لم يفعل فماذا يضيف لحياتها.

(20)

اعتادت زينة وضعها الجديد وأصبحت حياتها أكثر سهولة وأقل ضغطا.. والدتها تتحمل عنها بعض المهام المنزلية؛ يتقلص دورها بين عملها ورعاية طفليها.. بدأ الذبول الذي حل بها أن يتلاشى وتعود إشراقتها القديمة. شيء جديد طرأ عليها، شيء إيجابي رغم مكوث ولدها في الجبس ورغم تجاهل سليم لها ولأولاده.

بدا لها أنه كان عبئا عليها وارتاحت منه، ماذا كان يضيف لها في الحياة غير حمل زائد فوق كاهلها. يبدو أن قرار ابتعادها لم يكن متعجلا أو خاطئا كما اعتقدت في البداية؛ اعتقدت أن روحها المتفائلة قد عادت بعودتها إلى منزل طفولتها وذكرياتها واعتناء والدتها بها، الذي لم تتوقف عنه منذ وضعتها.

لكن هل تلك هي الحقيقة خلف بهجتها، إنها تعيش وتحلم كفتاة لم تتخطى العشرينيات. لقد سلمت بأمر انفصالها وجعلته حقيقة واقعة أمامها بعدما مر شهران ولم يحاول سليم أن يسترضيها أو يعاتبها. اعتقدت انه يريد الانفصال أيضا؛ فارتاحت لأنها لم تظلمه فيما ظنته فيه من لامبالاة وعدم تقدير لمشاعرها.

كم مرة قررت الهجر والابتعاد؛ لكنها كانت تخشى أن تضعف أمام مشاعر تحملها له منذ تزوجا.. مشاعر كانت جميلة في بدايتها و تلاشى

بريقها ورونقها؛ فأصبح وجودهما سويا مجرد عادة؟؛ حتى العادة كانت تخاف ألا تستطيع التخلص منها؛ دائما كانت تخاف الاعتراف برغبتها في الفراق والابتعاد.. لم تكن تدري مما تخاف أمن مجتمع يتهمها بالقصور والتقصير أم من ظلم قد ينالها منه، لأنها قررت الابتعاد دون أن يقرره هو أولا.. أم كانت تخاف على أولادها من حياة بين والدين مشتتين؛ إن الأمر أبسط كثيرا مما توقعت.. ليس لأنه سهل وبلا عواقب.. أبدا؛ ليس كذلك، فهو ليس سهل وتدرك جيدا أن عواقبه كثيرة.. لكن لا شيئا في العالم يوازي شعورها بالسعادة والارتياح وهي تتخلص من قمع رجل، لم تشعر يوما أنه يقدرها".

لاحظ عادل أنه كلما رآها تكتمل داخله أشياء.. تتكون في عينيه أحلام؛ أحلام تجعلها تتفاءل وتنظر للمستقبل بحدقة متسعة.. تنطق لتخبر الجميع؛ أنه يحب.. إنه يبحث عن زوجة وربما رآها مثالية له، لكن ليس هذا ما يسعده فقط.. انه سعيد بحالة الحب و الانتظار التي يعيشها. إنها تناسبه وربما تشبهه في أشياء كثيرة؛ يكتمل بوجودها . لم يعد يحاول التخلص من الفكرة؛ يبحث فقط عن طريقة ليخبرها.. ويتيقن من ردها. ربما كان عنده الكثير ليميزه.. لكن هل لديه ما تبحث هي عنه و تحتاجه.. كان يخشى رفضها لمبدأ الزواج بسبب تجربتها الأولى.. ماذا تحتاج كي تكتمل هي معه أيضا.. ماذا تريد من شريكها.

فكر عادل فيما لا يفكر فيه كثيرون من جنسه؛ إنهم يفكرون فيما يحتاجون لتحقيقه مقابل مشروع الزواج؛ ولا يفكر إلا القليلون فقط؛ فيما يحتاجه الطرف الآخر من زواجه؛ وهل باستطاعته أن يقدم له ما يحقق له السعادة أم لا؟

رغم إحساسه بحبه لها؛ إلا أن تجربته الأولى جعلته يعيد التفكير لمرات ومرات؛ قبل أن يقرر الارتباط، حتى لا يكرر تجربته السابقة. هل يمكن أن تكون زينة اختيارا صحيحا له؟ وهل يمكن أن يكون هو الاختيار الصحيح لها؛ صار ذهنه مشغولا شاردا.. لكنه لم يفكر بعد في توجيه أي سؤال أو استفسار إليها.

وبينما هو ذاهب لحصة يوسف فكر أن ينقل ما يشعر به لها.. فاشترى باقة من الورد يهديها إليها.. لكن بمجرد أن رآها لم يستطع البوح بالحقيقة وتملكه ارتباك فقال "مازال يوسف مريضا.. اعتقدت أن الزهور تسعده"، لكن دائما ما تقول النبرات والعيون ما لا تستطيعه الألسنة. لقد فهمت ما يريده، أو على الأقل شغلها ظن به. ثلاثة مدرسين غيره يترددون على ابنها.. لم تلاحظ في أي منهم ما تراه من عادل؛ من اهتمام وارتباك كلما رآها.. لم تلاحظ لطفا مع ابنها من أحد.. هناك خطب ما.. تفهمه جيدا؛ تلاحظه وتدركه. لكن قلبها مازال مقيدا بزواجها من سليم. هل حان الوقت الذي يجب فيه أن تتحرر من سليم كليا؛ لتعيش حرة في أفكارها وأفعالها.

(21)

علمت صديقات زينة القدامى بخبر انفصالها؛ فباتت الاتصالات تتوارد عليها لتستفهم أو تنصح. لكن ذلك لم يغير من رأيها في شيء، لدرجة أنها أخبرتهم انه تم تطليقها فعلا؛ و ليست غاضبة أو تنتظر إجراء منه. حديث بعضهن أحيا داخلها ذكريات جميلة، جعلتها تتمنى لو تتحدث إليه مرة أخرى؛ لو يتفقان على البذل والعطاء معا، تمنت لو أن تطلب منه أن يحتويها احتواء أب لطفلته؛ فهي تحتاج منه ذلك مهما كبرت ومهما قويت، لكنه لا يسأل حتى على أولاده.

صارت ترد عليهم ردودا قاطعة؛ إنه تم الانفصال وكله قسمة ونصيب. كانت "سارة " واحدة من صديقات الطفولة، بل كانت تعيش معها كأخت في فترة من حياتها، وكأن السور الفاصل بين الشقتين غير موجود. سارة تكرر زيارتها لبيت أخيها بصفة دورية. وكانت تمر على جارتهم والدة زينة كل مرة. مضى شهور طويلة منذ التقتا آخر مرة. هذه المرة وجدت زينة والأولاد وعلمت بخبر انفصالها. لم تصدق في البداية؛ فلم يحدث أي مشكلة تنذر بذلك، كما أن الجميع يعلم أن زينة ليست المرأة التي تهدم أسرة لأمر هين، وكذلك سليم رجل جذاب؛ كأبطال السينما، لكنه لم يكن ذو خلق سيئ.

ماذا تغير؟ وماذا حدث؟ هكذا سألت زينة التي أجابتها

- لم يحدث أي شيء.. لا أذكر شيئا سيئا أحكيه.

- إذًا لماذا تتركين بيتك وتطلبين الطلاق؟

- كنت منهارة ليس أكثر.. منهارة لدرجة أوقفت قدرتي عن تحمل المزيد.. كنت احتاج من يساندني.. احتجت يدا تربت على كتفي وتقول أنا معكِ؛ أتحمل عنكِ؛ فلم أجدها ووجدت هجوما حادا طول الوقت. شعرت وكأني مسخرة له؛ امرأة، قرر ألا يرحمها أبدا، وعندما قررت الهروب وكنت في أضعف أوقاتي لم يسأل عني أو يتساءل.. لم يحاول الاطمئنان عما إذا كنت مازالت منهارة أم تماسكت من جديد.

تنهدت سارة بألم

- أوه.. لست أدري مشكلة كل الرجال أم كل النساء، في نفس الدائرة نتحرك جميعا أو على الأقل أتحرك معكِ. واستطردت.

- لكن لا يمكنني الطلاق أو التفكير فيه، أين سأذهب ببناتي.. كما أنهما لن ينلن نفس الرعاية والحب الذي ينلنه ونحن معا. الأمر ليس سهلا على الإطلاق، كما أني لا أسمح بأي تعدٍ أو تحامل عليّ.. وإن كنت أضطر بعض الأحيان أتلبس بشخصيات لم تروقني أبدا.

قالت زينة بثقة: ليس لدي مشكلة في كل ما قلتِ، حتى أولادي لن يعترضوا على رغبتي في الانفصال؛ فلم يكن والدهم موجودًا في حياتهم

كي يتألموا بفراقه. ولا أستطيع أن أتعامل بطباع دخيلة عليّ.. تربينا أن للرجل سيادته وقوامته.

و تابعت: لكن ألست تعملين منذ التخرج، أين أموالك؟

ضحكت سارة بمرارة وقالت: أموالي.. ليس لدي ما يخصني غير سيارتي.. ومبلغ غير فعال أدخره.

قالت زينة: لِمَ؟.. ليس من الحكمة أن ننفق كل الدخل.

قالت سارة وهي توجه عينيها بعيدا عن زينة، وكأنها تخشى أن تعرف حماقتها التي تخفيها عنها..عندما كانت تعطي راتبها لزوجها:

- هذا ما كان يجب أن يحدث لكن كلما ارتفع دخلك، ارتفعت معه طموحاتك.. في تعليم أولادك وظهورك ومستوى حياتك.

هذه المرة ضحكت زينة بمرارة أيضا فقد فهمت ما ترنو إليه سارة جيدا.

(22)

وصل خبر طلاق زينة إلى سليم الذي شعر بصدمة عند سماعه. وأصبح يتمتم

- كيف تفعل ذلك؟ كيف تشيع مثل ذلك الخبر؟ هل أصابها الجنون؟

أجابته أمه

- تأخرت عليها، ففضلت غيابك على انتظارك. وأهملتها، فاستغنت عن حاجتها لك.

وتابعت اذهب إلى زوجتك قبل أن تطرق أبواب المحاكم لتشكوك أو تطلب فراقك.

تأثر سليم بحديث أمه، لكنه لم يعمل به، فقد زاد عناده!

وقال: لتندمي على كل كلمة خرجت منك.. وسأل نفسه، ماذا فعلت بها؟ كافرات العشير.

مرة أخرى يقرر أن يعاملها معاملة السيد للعبد ليس معاملة حبيب لحبيبته أو أب لابنته يرفض أن يردها عن خطأها، إن رآها أخطأت.. يرفض أن يتصور أنها إنسان مثله، لها ما له وعليها ما عليه.

عاد إلى شقته وكل شيء بها يدفعه إلى تذكرها وزيادة إحساسه بفقدها.. كل شيء يتحدث بصوتها الهادئ الذي لم يعلو مهما كان غضبها.. حركاتها الناعمة بين أرجاء المكان وضحكاتها بين أطفالها. لم يكن يشعر

بوجودها إلا إذا احتاجها. كانت السكون والسكينة. هل ترحل بأولاده بلا رجعة، هل عليه أن يبحث عن بداية جديدة.. وهل ستكون بروعة البداية الأولى؟

ذلك البركان الهائج داخله، لا يسمح لأحد مهما كان بمجرد الإحساس به.. اعتقد أن حديثه عن حقيقة ما يجول في قلبه فيما يخص امرأة ينتقص من رجولته ولو كانت تلك المرأة هي زوجته. رجولة مشوهة زرعتها الأيام فيه كما زرعتها في الكثيرين من أبناء مجتمعه . لكن أيا كانت مشاعره فهو غاضب.. غاضب حتى الاحتراق.. دمه يغلي في عروقه. لابد أن يخرج غضبه.. يفرغ ما به من حنق وغيظ.

ألتقط هاتفه.. بحث عن رقمها وضغط.. لم تمض ثوان قليلة حتى سمع صوتها:

- أهلا

- ألن تعودي لرشدك بعد؟ لقد نفد صبري مما تفعلين.

- ألم أخبرك.. أن تعتبرني طالق منذ يوم الحادث.. وقد حققت لي مطلبي وانقطعت أخبارك؛ حتى سؤالك عن أولادك انقطع.. هل طلقتهم معي.. لا بأس إن فعلتها.

- اعتبرك طالق.. هل أنتِ من تحدد أن تكون طالقًا من عدمه.. ثم أخرج ضحكة ساخرة وتابع،

- هل اعتبرتِ نفسك رجل البيت.. أم نسيتِ أنك امرأة يا ذات الدين.. ألا تعلمين كم يغضب الله وملائكته مما تفعلين..هل تدرين كم مرة لعنتك الملائكة منذ تركت البيت.

صمتت برهة وكأنها تتساءل داخلها.. هل حقا هي مذنبة وتلعنها الملائكة.. لكن لماذا تلعنها الملائكة.. لقد طلبت الفراق ولم تعصه تحت سقف بيته.. وهو لم يحاول الإصلاح ولم ينفذ طلبها.. تركها كالمعلقة. رغم ذلك أخرجت إليه سؤالها ببراءة طفولية:

- لماذا تلعني الملائكة؟ أنا لم أعصيك مرة.

وبدأت الأوجاع القديمة تتردد إلى عقلها ثم إلى قلبها فعينيها التي بدأت بالبكاء وتابعت متسائلة

- هل عصيتك مرة واحدة منذ تزوجنا.. أخبرني.. ذكرني إن كنت فعلتها

لم يجد شيئا يقوله إلا أنه تذكر أنها لم ترضخ لأمره بترك عملها في الصيدلية، وهذا ما جعله يشك أنه لا يحكم سيطرته عليها.. وصار غليظا حادا في معاملتها فقال:

- طلبت منك سابقا التوقف عن العمل فرفضتِ

- كان هذا من شأني؛ لم يكن به ما يضيرك.. وقد أخبرتني أن أدفع فاتورة أحلامي وحدي.. وهذا ما حدث.

هدأت قليلا واستنشقت الهواء حتى أفاقت من دموعها. وقالت:

- لا أجد سببا للجدال؛ وإن كنت تخشى علي من غضب الله ولعنة الملائكة.. فالحل بيدك لا بيدي.. أنت الرجل.. أنت من يستطيع نطقها وتحقيقها و قتمـــــــــــ....

- أقولها حينما أحدد أنا.. ليس أنتِ.. لن أطلق.

أغلقت الهاتف وقد تملكها الغضب.. وكأنه انتقل إليها منه. شعور بالاشمئزاز والقرف ينتابك عندما لا تجد وصفا يتسع لما يحدث حولك من ترهات.. كيف يراها؟ وماذا تمثل له كي يحدثها هكذا.. هل يكفي أنها زوجته كي يعاملها بكل هذا التعنت؛ إنه لم يكلف نفسه عناء السؤال عن أولاده.. كيف عاشت معه كل تلك السنوات وهي لا تعرفه!

(23)

فجأة لم تعد شقته تروق له.. أدرك أنها تحتاج للتجديد والإصلاح.. أدرك أن الجلوس على المقهى لم يعد يروق له. أصبح يفضل القراءة.. خاصة

دواوين الشعر وروايات الحب؛ يبحث عنها فيما يقرأ.. يبحث عن قلبه الذي تجدد بوجودها بين الكلمات. لم يعد سكون البيت يستهويه، فاشترى مجموعة من العصافير.. يحكي لهم عنها.

اعتادت والدة زينة أن تقدم له اللبن؛ كلما حضر. واعتاد هو أن يناديها بـ أمي. بطريقة ما، صارت تعامله كولدها. لذا طلب منها أن تساعده هي وزينة في اختيار الألوان والأثاث الجديد لشقته.. أخبرهم أن النساء أكثر خبرة وأعلى ذوقا في تلك الأمور. لم تجد مفرا من الاستجابة لمطلبه؛ خاصة أنه سيصور كل ما يروق له من أثاث ثم يعرض لهم الصور.. ليعرف رأيهم فيها. الأمر لن يسبب لهم أي نوع من المشقة والإزعاج.. هذا ما رأته السيدة؛ لكن زينة كان لها رأي آخر. ربما كان تجديد شقته وادعائه أنه يحتاج المشورة منها سبب مقبول ليتحدث إليها؛ لكنه كان مفضوحا جدا لها. لما يرتبك الرجال عندما يحبون؟

استيقظت زينة هذا الصباح تشعر بالسعادة تسري في كل جزء منها احتضنت ابنتها ملك لتوقظها من نومها قائلة:

- استيقظي حبيبتي؛ فاليوم لدينا مناسبة خاصة، علينا الاستعداد لها جميعا.

كانت مناسبة خاصة تعني لـ ملك احتفالا لكن لماذا الاحتفال؟ تساءلت ملك بسرعة.

- هل هو يوم ميلاد يوسف

- قالت زينة: لا

تساءلت ملك وهي غير واثقة: هل يوم ميلادك أم ماذا؟ لا أذكر هذا التاريخ إنه تاريخ احتفال

- قالت زينة بلهجة جادة وهي تحاول الابتسام:

- يوم ميلاد ماما.. أول يوم ميلاد لماما، وأضافت، ستخرج ماما إلى عالم جديد اليوم.

كان يوسف لا يزال غارقا في نومه، فهو يسهر طويلا مع والدته لمراجعة الدروس حتى لا تؤثر إصابته على مستقبله.

نظرت إليه بحب وعدلت غطائه، ثم تركت غرفته وتوجهت إلى والدتها فوجدتها مازالت تتابع أذكار الصباح.

ذهبت إليها قبلت يديها وقالت:

- أحتاجكم اليوم إلى جانبي احتاج مساندتكم لي، مازلت تلك الصغيرة التي تخاف الظلام وهي وحيدة، ورغم ذلك أصر على مواجهته لأنه لا سبيل إلا هو أمامي.

والدة زينة جاوزت الستين وقد تفرغت للعبادة منذ إحالتها للمعاش وتقاعدها. تولت تربية زينة وحدها، وبعد زواجها كانت تعمد إلى

رعايتها ورعاية أولادها، ولم تتوقف عن ذلك حتى هجرت زينة بيتها وعادت إليها بأولادها. فقد كانت سيارة المدرسة تتلقى ملك عند منزل والدها وترجع بها إلى بيت جدتها التي ترعاها حتى تنتهي زينة من عملها وتعود لتأخذ ملك أثناء عودتها.

وكانت زينة تمضي يوم الجمعة بصحبة والدتها وأبنائها؛ أما سليم فكان يرفض مشاركتهم ذلك اليوم ويذهب هو الآخر إلى بيت والديه. لم تتدخل والدة زينة في حياة ابنتها منذ كانت تلميذة في الإعدادية، دائما كانت تدفعها لصنع قرارها بنفسها وعليها أيضا أن تتحمل نتيجته بمفردها، وما على والدتها سوى النصح والإرشاد. لذلك لم تعترض على ترك زينة لزوجها أو إشاعتها بأنه تم تطليقها؛ لأنها تعلم جيدا أن ابنتها لن تفعل أمرًا إلا وقد فكرت في تبعاته عليها؛ أو أنه الحل الأخير المتاح لها.

انتهت زينة من إعداد وجبة الإفطار وكذلك ملك أدت صلاتها وكادت تستعد للذهاب للمدرسة إلا أن زينة نبهتها مرة أخرى:

- لا مدارس اليوم لدينا مناسبة خاصة.

واتجهت لإيقاظ يوسف واصطحبته إلى مائدة الطعام.

وقبل أن يتناولوا أي طعام تساءلت ملك:

- ما المناسبة الخاصة التي تقصدينها؟ ليس اليوم يوم ميلادك ولا يوم الأم ما هي أريد أن أعرف.

- تابع يوسف وهو يفرك عينيه مستغربا:

- مناسبة خاصة لم أنم حتى أقمت صلاة الفجر ولم أسمع بأمر كهذا.

نظرت زينة إلى والدتها وكأنها تستمد القوة منها وقالت:

- تعلمون أن هناك خلاف بيني وبين والدكم. هذا الخلاف يجعلنا غير قادرين على متابعة الحياة سويا.

لكن اعلموا جيدا؛ أن كلانا لن يتوقف عن رعايتكم وحبكم.

امتقع وجه يوسف غضبا وقال: أي رعاية تقصدينها.. هل تقصدين تلقيه العزاء فينا إذا متنا، أم إعطائه المال لنا كل صباح، أي رعاية وقد استعنتِ بالغريب وهو يتجاهلنا.

لم تكن زينة تدري ما تقول لولدها لتبعد هذه الأفكار عن عقله.. ولم تعرف كلمات تدافع بها عن سليم أمام أولاده ولكنها نظرت لولدها بحسم وقالت:

- لا يجوز أن تتحدث بهذه الطريقة عن أبيك.. فمهما يكن سيظل أبوك.

اعتذر يوسف وتابع:

- أمي طالما كنا معك فنحن بأمان ورعاية فلتفعلي ما تريْنه صحيحا.

أما ملك فقد بكت وقالت: أمي لا أحتمل فراق أحدكما

لكن زينة أجابتها وكأنها كانت تتوقع السؤال:

- لن أحرمكم والدكم طالما احتاجكم أو احتجتم إليه.

لن يُفرّق انفصالي عن والدكم بينكم وبينه، ولكن سيفصل بيني أنا وهو.

تدخلت الجدة وقالت للطفلين:

- الحياة بعيدا عن أبيكم لن تكون صعبة فلا تخافوا؛ أشياء كثيرة يقلق منها المرء ويخاف ثم يعتادها. أما أنتِ يا ملك فلن يختلف الأمر معكِ كثيرا، ففي كل حال تمضين معظم أوقاتك معي.

بعد هذا الحوار بدأت زينة تشعر بالريبة والقلق من الانفصال لقد تحول القرار إلى مرحلة التنفيذ، وما زال سليم لا يهتم ولا يسأل ألهذا الحد لا تعنيه أم كان يضيق من وجودها وفرح بهجرها. هل تراه تعمّد إهمالها وسوء معاملتها ليجعلها تهرب وتتركه. هل يعقل أن يكون الرجل الذي عاشرته كل تلك السنين بكل تلك الخسة والوضاعة وهي لا تدري.

لكن ماذا تفيد الحقيقة الآن؟ فالنتيجة واحدة.

تركت طعامها واتجهت إلى الهاتف تتحدث إلى المحامي وطلبت منه التحدث إلى سليم بصفة ودية أولا لإتمام الطلاق. وإن لم ينجح فليقم برفع دعوى قضائية لتخلعه.

(23)

زاد الحديث بينهما في الفترة الأخيرة؛ كان مقتضبا مرة ومرة كان يطول.. تتحدث إليه فيما تحب وتفضل من الألوان والطرز.. يحاول أن يعرفها أكثر ويعطيها الفرصة لتعرفه. ثلاثة أسابيع مضت وهو يجدد شقته، ورغم أن التجديد يشرف عليه مهندس ديكور إلا أنه كان يستشيرها كما لو أن البيت يعد من أجلها.

"لا أرغب فيها كزوجة فقط، لكني كلما رأيتها وددت لو أكون أقرب منها.. لو أنظر إليها بحرية أكثر.. لو أسمعها وتسمعني.. أشعر كلما رأيتها أن شيئا بداخلي يكتمل"

هكذا وصف عادل إحساسه بزينة لصديقه؛ عندما أخبره عن رغبته في الارتباط بها وحذره من التسرع في خوض تجربة جديدة.

وقال: اترك لنفسك متسع من الوقت ولا تتعجل.

- أخشى أن تكون لغيري.

- ليس مبررا للتعجل.

- يجب أن تعلم.. يجب أن تقرر. عليها أن تأخذ وقتها للتفكير.

- ربما كنت منشغلا بها؛ لأنك ترى فيها عوضا عن زوجتك وأبنائك. أخشى أن تكون باحثا عن البديل فقط.

- كيف أبدأ الحديث معها.. لا أدري.

قرر عادل، مؤخرا، أن تكون زينة هي اختياره لحياته القادمة. لم يمض سوى شهران منذ التقاها أول مرة. هل يكفيان لصنع قرار؟ تحرك قلب عادل نحو امرأة ظنها ضعيفة وأراد أن يحتويها. لم يفكر أنها ربما ترفض طلبه لأي سبب، ربما كانت مرتبطة بآخر وهو لا يدري كل ما أراده عادل أن يخبرها.. عليها أن تعلم أن هناك قلب يهفو لأنفاسها؛ قلب يتمناها مع كل نبضة فيه. فلم يتبق سوى أيام ويعود يوسف لحياته الطبيعية ويعود للدراسة في المركز وستقل أو تنعدم فرص حديثه إليها أو رؤيتها.

ربما كانت زينة تعلم أو تلاحظ ما يجول في خاطره، وذلك ما جعلها تعجل الطلاق بصفة رسمية حتى تتحرر من كل قيد يمنعها عن حياة جديدة ربما كانت أفضل من الأولى. فيها تعويض لحرمان طويل للروح و القلب من الحب والتقدير.

(24)

جلست سارة تتحرك وتنظر في ذهول وكأنها غائبة عن الواقع وهي تردد "تنتحر؛ تحاول قتل نفسها، كيف هانت عليها حياتها"

سألتها زينة: من؟

- عاملة في شركة الأدوية التي اعمل بها؛ تغيبت اليوم عن العمل وعندما اتصلنا للسؤال عنها علمنا أنها حاولت الانتحار.

- وهي الآن محجوزة في المستشفى حالتها خطرة.

- لماذا؟

- يقولون لأنها أرادت الطلاق والانفصال لكثرة ما تتعرض من إهانات فأخذت ولديها وذهبت لبيت أبيها

- وما المشكلة إذن؟

- قرر والدها طرد الولدان ليعودا إلى أبيهما فاستعطفته أن يدعهم معها وستقوم هي برعايتهم والإنفاق عليهم.

لكن الأب قال لها "هو يرميكي ونحن نربي أولاده؛ أبدا لن يحدث" استعطفته ورجته أكثر، إنهم أولادها وأخبرت والدها أنه من الممكن أن يرميهم في الشارع ولن يهتز لأجلهم طرفه؛ لكن أبيها رفض وأخبرها إن أرادت أولادها منه ، فلتعد إليه ولتتحمل ما يحدث لها"

قالت زينة وقد اقشعر بدنها من هول ما تسمع: أواثقة أن ذلك الرجل أبيها؟

- نعم هكذا كانت تقول أنه أبيها.

فحوقلت زينة، ثم شردت في تفكير عميق، كيف غضبت هي الأخرى وقررت أن تترك زوجها للأبد؟ ولكنها لم يكن لديها مشكلة، إلا أن تقرر الابتعاد. لم يكن لديها أي مشكلة في نفقة أو سكن أو مال.

ماذا لو كانت باعت الصيدلية كما أراد زوجها وجلست ربة منزل فقط؟ ماذا لو لم يكن لديها مكان بديل للحياة فيه؟ وظل زوجها يعاملها بتلك

القسوة وذلك الإهمال هل كانت تحاول الانتحار مثل تلك المرأة أم تتعايش في وهم كبير مثل سارة؟ وانتبهت من شرودها إلى سارة التي أراحت رأسها للخلف وثبتت عينيها إلى السقف وقالت:

- لا عليكِ بأمر العاملة فربما نجاها الله وأعطاها فرصة أفضل.

وأضافت وهي تحاول تغيير الموضوع:- أتطول زياراتك لأخيك هكذا كل مرة.

- نعم كل شهر يومان أو ثلاثة.

- وبناتك؟

- يستطيعون الاعتماد على أنفسهن؛ كما أن أبيهن يتابعهن.

أظهرت زينة دهشتها وهي تقول:- أليسوا صغارا

فقالت سارة:- بلى، هكذا اقتسمت الأعمال بيني وبين زوجي كما قاسمني راتبي لسنوات، هل أتحمل المسئولية كاملة لأنهار وأشيخ قبل الأوان.. الحياة لنعيشها.. لنفسي أيضا علي حق.

استدركت زينة وسألت:

- أحيانا كثيرة أري أنه لا مفر من خروج المرأة للعمل.. لتحتفظ بكرامتها وكبريائها، وتتمكن من الحصول على حقوقها في حال تضررت.

أجابت سارة بسرعة:- ربما؛ لكن الحقوق تضيع إذا أهملنا المطالبة بها فقط؛ وهذا ما حدث معي، عندما امتلكت المال كنت اشتري كل ما أحتاج وأكثر مما أحتاج، كنت أتحمل أي أعباء مالية إذا كان غائبا عن المنزل ولا أخبره عما دفعت شيئا.

ولا يسأل هو عما حدث ولا يهتم و كان ذلك لا يهمني في البداية لكني انتبهت إلى سوء تصرفي كله عندما احتجت سيارة تقلني إلى عملي واستخدمها في نقل الأولاد إلى مدارسهم والى النادي وغيره. فقال لي "لكِ عندي الطعام والمشرب والكسوة وما زاد عن ذلك فلتتدبري أمركِ فيه"

غضبت جدا من قوله فبادرته قائلة "إذًا فحقوقك عندي هي ما أقره لك الشرع وأكون آثمة إذا لم أفعله"

كان يملك المال ورفض مساعدتي واضطررت لشرائها بالتقسيط وضيق عليّ ذلك في حياتي رغم أنه لو ساعدني لكان عافاني من كل ذلك. واحتفظ برجولته أمامي.

ومنذ ذلك الحين سقطت أشياء جميلة كانت تخصه في نفسي. صرت أعامله كعميل عندي لا يمكنه الاستلام قبل الدفع؛ وصار كل شيء بيننا بثمن. المعني الجميل للزواج الذي تعلمته من والدي ذاب وتبخر أبعد ما

يكون عن تعاملي معه. رغم أن ذلك يزعجني إلا أنه أفضل كثيرا من الاستسلام له.

(25)

كانت الساعة تدق التاسعة مساء عندما دق سليم جرس الباب، لتفتح له زوجته التي توقف عقلها عن التفكير عندما رأته؛ كانت لا تدري ماذا تقول هل تدعوه إلى الدخول أم تسأله أولا عن سبب الزيارة.

ملامحه.. كانت حادة يشع الغضب واللوم منها؛ نظر أليها وأطال النظر كان يفتقدها كثيرا؛ لكنه غاضب أشد ما يمكن من أكثر امرأة أحبها؛ وهي كانت في حزن، كمن تلقى جثمان عزيز فقده منذ أيام. حاولت أن تقاوم

رغبتها في البكاء لكن دموعها غلبتها وأشارت له بيدها أن يدخل دون أن تنطق بكلمة.

بمجرد أن استقر سليم على الأريكة قال موجها حديثه إلى زينة :

- حتى متى بظنكِ يمكنك هجر البيت؛ ألم تكتفِ من البعد.

ابتلعت ريقها واستجمعت كل ما عندها من قوة وقالت بلهجة واضحة:

- لم أكتف بعد.. ألم يبلغك المحامي رسالتي؟

- بلى.. وهذا ما أتى بي.

ارتسمت ابتسامة حزينة على ملامحها وهي تقول:

- هذا ما أتى بك.. حسنا فقد جئت لتتفق معي على تفاصيل الطلاق.

- لا، لقد جئتك لتعودي.. لا تكوني سببا في تشتيت أبنائنا.

- اطمئن.. انفصالنا سيكون أفضل.

أرادت أن تسأله لما لم يعجل إليها منذ البداية، لكن كبريائها أبى. أرادت أن تعاتبه لأنه لم يحاول الاطمئنان على حالة ابنه المصاب، لكن لما تعاتبه، فالعتاب دليل محبة وهي قررت قطع كل روابط المحبة بينهما.

ساد الصمت بينهما دقيقة ثم تابع سليم:

- لا تتعجلي.. أنا أريدك ولن أتركك أبدًا.. لكي الوقت كما تشائين لتراجعي قرارك.

قالت باقتضاب: تريدني...؟

- نعم أريدك ما حييت.

تمنت لو قال "أحبك" "أفتقدك"

تمنت لو جاء معتذرا عن تأخره عليها.

قالت وقلبها معلق بلسانها كأنه يرجوه ألا تفعلها.

- لكني لم أعد أريدك.. أكررها عليك مرة أخرى.. طلقني.

لم يكن الصراع داخل زينة بسبب فقد حبيب، أو أنها تحزن لأنها ستفارق سليم بذاته؛ لكنه الرجل الأول في حياتها أول من تحررت معه من كل القيود؛ لا تنكر أن السنوات الأولى لزواجها كانت تغمرها السعادة؛ لكن بعدما زادت مسئوليات البيت والأولاد وبدأت تحتاج لمكملات غذائية حتى يتسنى لها ملاحقة ما يجب عليها أداؤه؛ وهو يلاحظها تشحب وتبهت دون أن يتحمل معها جزءًا من المسئولية؛ جعلها تنهار أكثر؛ ربما كان عليها أن تنبهه ولا تكتفي بالألم والحزن بسبب تقصيره؛ لكن أليس له عقل وعينان يعي بهما ما حوله؛ أم لأنها حاولت مرة أن تخرج من الحجم الذي ثبتت نفسها عليه ليظل راضيا عنها.. حاولت أن تقول

مرة واحدة.. أنا موجودة وأستحق الحياة. أستحق أن يكون لي هدف وحلم يخصني و يسعدني.

(26)

كانت الليلة طويلة تمضى ساعاتها ببطء ثقيل وقد جافى النوم عيونها، تفكر في زوجها الذي بدا شاحب الوجه وفقد من وزنه الكثير؛ ولولا كبريائه الذي اعتاد أن يتعامل وهو يرسمه على ملامحه؛ لشعر من يراه بالشفقة لحاله.

وتفكر في حياتها التي قررت أن تتوقف مع سليم. إنها تكره طريقته في التعامل معها.. دائما تعتقد أنه يحبها لأجل نفسه وليس لأجلها. حب غاية في الأنانية يجعله لا يرى فيها إلا ما يريد أن يراه.. يضعها في إطار لا تخرج عنه وكأنه محبوسة في سجن طاعته.

أمسكت هاتفها المحمول تتابع الأخبار عساها تنشغل عن أفكارها. لاحظت رسالة غريبة لم تتوقعها.. إنها من عادل مدرس ابنها.

"السيدة المحترمة زينة:

منذ المرة الأولى التي رأيتك فيها تحرك شعور بداخلي؛ وأكاد أقسم للكِ أني لم أشعره من قبل. ذلك الشعور يكبر ويتنامى كلما رأيتك أو عرفتك أكثر؛ أرجو أن أكون بجانبك بقية حياتي وكذلك أبنائك فهمهم سيكون همي، وأرجو أن أوفق في إسعادك وإسعادهم.

سيدة زينة؛ هل تقبلين الزواج مني؟

أيقظ سؤاله أشجان الذكريات القديمة مجتمعة، كل شيء تمنته ولم يتحقق كل شيء أرادته ولم تنله وقفت صورته في خيالها لا تتحرك وكأنه يعاندنها، تذكرت فتيات البالية وهن يتراقصن بملابسهن البيضاء والتي جعلتهن يبدون مثل طيور أو فراشات رشيقة كم تمنت أن تكون واحدة منهن. لكن هيهات فليس هناك أي فرصة اجتماعية أو دينية تسمح لها أن تكون واحدة منهن.

هكذا هو في لحظة ما رأت فيه حلما لكنه حلم غير مشروع. رأت أمنية افتقدتها في حياتها كلها ألا وهو السند نعم تمنت كثيرا أن تجد لها سندا في الحياة. وأول من تمنت منه ذلك هو سليم لكن سليم لم تكن له صفة في حياتها غير أنه أبو الأولاد. أما عادل فقد كان سندا لها حينما لم

يتركها وحدها تواجه قلقها وخوفها و ابنها تحت أيدي الأطباء بعد الحادث. لم يترك ولدها وحده بعد إصابته، كان دائم الاستفسار والسؤال عنهم. اعتقدت أن اهتمامه أمرا روتينيا، رغم الشكوك التي كانت تراودها من تصرفاته.. هل كان كل ذلك حبا؟

أفاقت من كل أفكارها وهي تقرأ السؤال مرة أخرى.. وكتبت:

- كيف..؟

فما كان رده إلا أن تساءل مرة أخرى

- ماذا تقصدين بـ.. كيف؟

ودت لو كان لها جوابا آخر له.. ودت لو أن الزمان يعود بها لسنوات حيث كانت تلك الشابة الصغيرة التي تترعرع أحلامها في عقلها فتقول له بسعادة "نعم.. أقبل"

لكن هذا هو المستحيل عينه عليها أن تخبره بالحقيقة، حقيقة أنها في عصمة رجل تركها تواجه زحام الحياة وحدها حتى ظن عادل أنها وحيدة، فكتبت

- أنا منفصلة.. لكن الطلاق لم يتم؛ أنا امرأة معلقة.. وتابعت

يرفض الطلاق رغم إصراري عليه.. لأني من يطلبه، مصر أن أعود.. لكني لا أستطيع

كانت تكتب له والدموع لا تتوقف من عينيها.. شعرت أنها تريد أن تحكي وتسرد كل همومها.. اعتقدت أنه سيتفهمها وربما ساعدها كما يفعل كل مرة؛ لكنها توقفت.. لم تكتب كلمة أخرى. لم تخبره أن يدعها.. ولم تخبره أنها تريد العودة. إنها في حيرة لا تنتهي، لا تدري ماذا تفعل؟ ماذا تقرر؟ معلقة بين قلبها ورغبتها في الحياة، وبين زوجها الذي أبى أن يترك أو يصلح.

القرار صعب؛ إنه لا يمس العقل والحياة فقط ولكنها ذكريات وعشرة وحنين قد يتجدد وأبناء عليها أن تحرص على مستقبلهم. كأمواج البحر تتقلب أفكارها بين الحنين والحاجة للاهتمام منه وبين الجفاء والقسوة كلما تذكرت معاملة زوجها لها.

تحولت كل خلية في جسدها إلى ساحة حرب كبيرة، بين قلبها الذي يريد الحياة وعقلها الذي يلزمها بواجبات عليها أن تؤديها، لكن هل حقا كل ما تعيش لأجله وتمضي عمرها فيه هي واجبات عليها أم واجبات أحد غيرها وقد تحملتها عنه.

كان عرض الزواج الذي قدمه عادل بمثابة الصدمة التي حطمت كل الأسوار التي تختفي خلفها رغبات زينة في الحياة والحب وتعويض العناء الذي تعيش فيه كل الوقت. كان الشيء التائه الذي تبحث عنه ولكنها كانت تجهله كان واقعا لأشياء جميلة افتقدتها في حياتها، كان

وكان وكان.. لكنه لم يكن لها؛ على الأقل وهي لم تغلق صفحة حياتها مع سليم بشكل نهائي.

(27)

يعرف أنها عنيدة ولن تستسلم حتى يفعل هو. يعرف أنها لن تعود حتى يرجوها حتى يعترف لها، إنها لم تكن تستحق التجاهل والجحود. نعم كان جاحدا معها بدرجة كبيرة، فلينظر إلى حاله وما صار إليه بعد رحيلها. لكنه يعود إلى عناده ويقرر أن ذلك واجبها ولا يشكر المرء على واجبه. أي امرأة مكانها كنت ستقوم بما تقوم هي به. صرخ بغضب وهو يتحرك داخل الشقة باحثا عن أمه :

- أمي

لم تجب ولكنه لاحظ أنها مشغولة بالحديث لشخص ما عبر الهاتف وعندما لاحظت اقترابه منها؛ أنهت المكالمة.

- أمي أنا متعب.. مرهق أشعر أن مشاكل الدنيا كلها جاءت فوق رأسي دون أن أدري كيف ولماذا؟

- ماذا فعلت معها بالأمس؟

- رفضت العودة ومازالت مصرة على الطلاق.

- هل تحدثت إلى أبنائك؟

- كنت افتقدهم كثيرا، احتضنتهم ولم أطيل في الجلوس معهم، فلم يكن هناك موضوع نتحدث فيه. أمي أنا متعب ومرهق.. لست أدري ما أفعله ولا أدري لماذا تتصرف زينة كذلك؟ لا أدري ماذا حدث مني كي تصاب بكل هذا الجفاء تجاهي؟ لم أهنها يوما أو أنطق بكلمة جارحة لها؟

هنا قاطعته أمه :

لم تقل لها ما يجرحها. لكن هل قلت لها ما يفرحها هل شكرت يوما جهدها لترتيب حياتك وحياة أولادك.. كم مرة سألتها عما تحتاج وعما ينقصها.. كم مرة سألتها، أو حاولت أن تتبين إذا كانت سعيدة أم لا؟

تبين سليم أنه لم يفعل ذلك فرفع رأسه المرهق وقال لأمه:

أي شيء يمكن أن ينقصها.. تعلمين أنه لا ينقصها شيء وأنها تملك الكثير من المال.. أنا أعلم أنه لا ينقصها شيئا فلما أسألها.. إنها قادرة

على جلب كل ما تشاء وإن كان ينقصها فلما لم تطلب؟ ما كنت لأتأخر عنها.

عاجلته أمه قائلة:

ليس المال هو كل ما تحتاجه المرأة من زوجها.. خاصة إذا كان متوفرا لديها. كما أن الاهتمام بالعاطفة والشعور لا يطلب هذا، كان عليك أن تفعله ذاتيا.. واستطردت وهي تتنهد: كان يجب أن أعلمك كيف تكون رجلا مع زوجتك، عندما علمت أختك كيف تتزين لزوجها.. لكني ظننت أن الرجولة فطرية وليست مكتسبة.

صمت سليم وقد أحس التوبيخ في كلامها، ثم قال: أخبريني إذًا.. ماذا تحتاج؟

قالت الأم: إن لم تعرف الإجابة وحدك فلا فائدة من عودتها إليك. تحدث إليها، حاورها أخبرها بكل ما في نفسك.. دعها تخبرك بآلامها وأحلامها.. لا تكن كأبيك عندما غضبت منه تركني لا يبالي بي وتزوج بأخرى وبعد شهر من زواجه، أراد العودة لي نادما على كل ما فعل؛ لكن الأوان قد فات وكنت قد ارتبطت برجل آخر.

توقف عقل سليم عن أخر جملة نطقت بها أمه؛ كاد أن يتوقف قلبه. هل يمكن أن تكون قد فكرت في الزواج لذا استعجلت الطلاق؛ لقد أخبرته

سابقا الورقة التي لها عنده لا تعنيها، كانت تقصد ورقة الطلاق الرسمي؛ إذا فلما تطلبها الآن؟

(28)

جلست رحمة إلى زوجها تحدثه من جديد عن رغبتها في إنجاب طفل وعن حلمها في أن تصبح أما.

- لما لا نجرب عمليات أطفال الأنابيب. لنستشر طبيبا فربما نجح الأمر معي.

انتبه الزوج إلى حديثها: هل تعلمين كم تكلف هذه العملية ما لا يقل عن عشرين ألف جنيه وأنت تعلمين الحال.

رحمة: لا تقلق.. أنسيت أنني أملك ميراثا من أبي؛ سأبيعه لأوفر مصروفات العملية.

الزوج: ولكنك تركتيه منذ سنوات حتى يعيش أخوكي من محصول الأرض.

قالت رحمة: تركته ليستفيد به ويسد حاجته ولم أتنازل عنه؛ أنا الآن احتاجه لتحقيق أمنية تحلم بها كل امرأة متزوجة انه حقي.

: الأمر بينكما.. لكني أخشى أن يتسبب ذلك في مشكلة.. ثم تابع : وعليكِ أن تعلمي أن عدم وجود الأطفال لن يغيرني يوما؛ فقد تزوجتك لأني أردت أن أمضي حياتي برفقتك، تزوجتك لأنك كنت بذاتك حلما لي وليس وسيلة لتحقيق أحلامي.

دائما ما يكون حديث زوج رحمة لها كالبلسم على الجروح أو كالماء على النار. كلماته تشيع في نفسها الرضا؛ إن حل القنوط، وتحل الأمل مكان اليأس. لذا فقد كانت دائما تشعر بالفخر به، كانت تراه سيدا حكيما وهي كالطفلة الصغيرة أمام حكمته.

(29)

شعر عادل بخيبة أمل كبيرة وهو يتابع ردود زينة؛ كما تملكه خزي شديد من نفسه لطلبه الزواج من امرأة مازالت في عصمة رجل آخر. لكنه حاول التخلص من إحساسه ذلك؛ لأنه لم يكن يعلم الحقيقة التي أخفتها زينة حين أشاعت طلاقها. ود لم يسألها عن أشياء كثيرة تخص مشكلتها مع زوجها.. منذ متى وهي تعيش كالمعلقة؟

هل طلبت الطلاق عن طريق القضاء أم لا؟.. ربما تحتاج محاميا أفضل لينهي لها القضية. كان يكتب كل سؤال يمسحه و يتردد فيكتبه مرة أخرى؛ حتى توقف عن الكتابة وقرر الابتعاد.

يجب عليه الابتعاد الآن إذ كيف سيقابلها بعد أن علمت رغبته في الزواج بها. وهي لا تزال زوجة لغيره. بقى شهر حتى يستطيع يوسف الحركة بحرية والعودة لدروسه ومدرسته.

هل يعتذر أم يستمر معه حتى تنتهي مهمته؟ هل يتخلى عنها بعدما وثقت به؟ هل يخذلها وهو يتمنى رضاها؟

إن تزوجته أو لم تكن له فيجب عليه أن يحفظ احترامها وتقديرها له. وكرر بصوت مسموع "الرجل لا تحركه مشاعره؛ الرجل تحركه أخلاقه".

كان يخشى أن تميل إليه في وقت ضعفها. ربما هي مشتتة تائهة بين ماض ومستقبل. يجب أن يكون شديد الحرص حتى تتخذ المسار الأفضل لحياتها، لا يجب أن يكون سببا لإضافة أي ألم إليها.

كان يقترب من باب الشقة وهو يستفيق من أفكاره. فتحت له ملك معلنة بصوت مسموع "أهلا مستر عادل"

دخل وكأنه يدخل لأول مرة، دون أي تعليق، مر بغرفة المعيشة ثم بطرقة طويلة تنتهي بغرفة يوسف، وما لبث أن دخل حتى أغلق الباب وقال "دعنا نبدأ درسنا"

لم يكن كعادته يمازح يوسف ويطمئنه ويسأل عن أخر المستجدات بشأن حالته الصحية؛ حتى انتهى الوقت المخصص وتأهب للخروج متجها نحو الباب، لكن يبدو أن شخصا ما كان يفتح الباب من الخارج؛ وجدها أمامه وجها لوجه خفضت بصرها على استحياء، وألقت التحية فردها عادل وتابع مناديا: دكتورة زينة

التفتت متفاجئة: نعم.. وأردفت متسائلة.. وددت لو أعرف ما كل تلك الرسائل المحذوفة

فأجاب: لعلها أسئلة لم يحن وقت طرحها.. وتابع:

- أرجو أن تتجاهلي كل ما قلته أمس؛ واعذريني فلم أكن أعلم الحقيقة.

لم تجبه.. صمتت فقط ونظرت إليه، للمرة الأولى تنظر إليه.. دون أن تفكر؛ قررت أن تعرف إذا كان حقا يريدها أن تتجاهل، أم أنه يتخلص فقط من موقف سيء تعرض له. ثم هزت رأسها إيجابا وعلى شفتيها ابتسامة حزينة.

قصد عادل أن يبتعد حتى يتسنى لها القرار إن كانت هناك وجهة للصلح عند زوجها، أراد ألا يكون طرفا في المشكلة ولو بشكل غير مباشر.

لكن ما فعله جعلها تفكر فيه أكثر وتتعجب لأمره أكثر من تعجبها لمجيئه بعد علمه بأنها ربما لن تكون له أبدا. ورغم علمها أن حضوره ليوسف استثناء لا يقبل به مع أحد غيرها وأنه ضحى بساعات عمل أوفر مالا لكي يساعد ولدها.

هل حقا يريدها أن تتجاهل أو تنسى أم يريد أن ترى منه التزاما ومسئولية تجاهها.. ربما شعر أنها تتحرك بارتباك.. لا تدري ماذا تشعر أو ماذا تقرر فتركها.. تشعر بحرية من التفكير في أمره حتى تتحرك أمورها بيسر أكثر.

وأيا كانت الحقيقة عند عادل فقد تعلقت به زينة.. وشغلها أمره ولم تدر ما تفعله امرأة معلقة في مثل حالها.. هل ستكون خائنة؟ ومن تخون رجل أهملها وأهمل ما لها عليه.كن كيف تخون وهي تنتظر فقط ورقة تثبت انفصالها؟

(30)

عاد سليم إلى شقته والغضب لا يفارقه يتساءل هل حقا تريد الزواج؛ لقد أشاعت طلاقها فربما هناك من طلبها ولكن هل يمكن أن تفكر بشخص آخر وهي لا تزال زوجة له. انه لا يتصور منها ذلك ورغم رفض عقله للفكرة إلا أنه رفع هاتفه الجوال وطلب رقمها؛ يسمع الجرس وهو متوتر

جدا ربما ترد في أي لحظة ماذا سيقول لها هل يسألها إذا كانت تريد الزواج بآخر؛ أم يسألها لما تحتاج توثيقا لانفصالهما.

توقف عند كلمته الأخيرة وهي تجيب الهاتف:

- أهلا سليم.

- أهلا زينة.

- زينة هناك سؤال لدي

- تفضل

- ما الذي يجعلكِ تنفرين مني لهذه الدرجة؟

لم تستطع الإجابة سريعا فلم تتوقع مثل ذلك السؤال منه.

أما هو فلم يعرف لما سألها هذا السؤال بدلا من الذي يقصده؛ هل أدرك فجأة أنه لابد أن يتخلص من كبريائه أمامها قبل أن يخسرها؟ أم أنه فعلا يريد أن يعرف لماذا أرادت الابتعاد.

طال صمتها فنطق باسمها يتأكد أنها مازالت تسمعه:

- زينة.

- نعم.

- أريد جوابا لسؤالي

- الجواب قاس.. ولم اعتد القسوة مع أحد.

- وهل هناك قسوة أكثر من طلبك الفراق، اطمئني لم يعد هناك ما يمكن أن يؤلمني أكثر مما حدث.

- أنا آسفة.. قصدت حماية نفسي لم أقصد إيذاءك.

- حماية نفسك؟! مما؟

- اشتقت لكوني امرأة.

- ماذا؟

ترددت كل المواقف السيئة في عقلها فجأة. تذكرت عندما تجاهل رسائلها له وهي تهفو لكلمة عذبة منه. تذكرت لامبالاته بعذابها وتعبها؛ وتجاهله لها ولابنه المصاب عندما غضبت؛ كل شيء تردد واندفع مرة واحدة لعقلها. لم تتمالك نفسها وهي تقول له:

- فقدت أنوثتي وأنا أحاول استدعاء رجولتك.. ماذا تنتظر مني؟ احترق مثل الشموع، أم أذوب كجليد القطبين.. في الحالتين لن أعود كما كنت، ولن أراك كما رأيتك أول مرة.. لم يعد لدي سبيل غير الابتعاد.

- تفكرين بأنانية.. لا تضعين اعتبارا لأبنائك.. أفيقي قبل أن تدمري البيت.

- لم أجد معك حماية أو كفاية.. كل يوم تذبل روحي أكثر.

ارتفع صوته وهو يقول: أفيقي.. انتبهي لقد وصلت للأربعين.. هل عدت لمراهقتك من جديد.. لن أسمح لك بالمزيد من الترهات.

قالت بهمس الجريح: كفى.. كفى قلبي لا يحتمل.. مزقت نفسي بخدوش قسوتك.

أنهت الاتصال وتحاملت على نفسها حتى وصلت غرفتها، جلست تبكي.. تتألم وتتذكر وأخيرا لجأت إلى مذكراتها تفرغ فيها بعض ما تكنه من مشاعر الحزن التي تملكتها؛ والأفكار تصارعها.. تتساءل لما لا يمكن التحكم في ميل النفس أو حبنا لشخص ما؟ كل ما نستطيعه أن نتحكم في التصرفات والأفعال.. فالأفعال يقودها العقل الذي يملك الإرادة.. أما المشاعر يقودها قلب لا إرادة له؛ خاضع فقط لتجارب سابقة مدفونة في اللاوعي.. لو كانت قلوبنا واعية، لتركناها تتحكم في حياتنا.. لكنها تتحرك بسيطرة أشياء مرت بنا رغم أنفنا منذ تفتحت عيوننا على النور.

لو أن القلوب بأيدي أصحابها؛ ما أحبوا ولا مالوا أو تعلقوا، فكلها حالات من العذاب والتشتت، عذاب ليس بيدك أن تقتلعه من وجدانك ولا بيد أحد آخر. الزمن وحده هو الكفيل بنزع تلك المشاعر من داخلك بخبرات تتجدد عليك؛ فيتغير حكمك ونظرتك للعالم ثم تتغير نظرتك لمن تحب.

هكذا تحول قلبها من حب وعشق لزوجها؛ إلى أول شخص قدم لها الاهتمام والرعاية.. قدم لها التقدير. ليس بيدها من يسود قلبها؟ لكن ماذا تفعل وهي لا تزال معلقة في عصمة رجل لا يعصم؟

وضعت هاتفها جانبا.. توقفت عن الكتابة؛ لكنها لم تتوقف عن التفكير.. هل حقا تميل إليه؟ هل ما تشعر به حب أم رغبة في تعويض حرمان تعانيه؟ أيهما كانت الحقيقة؟ فقد حانت اللحظة التي يجب فيها أن تتحرر كي تحتفظ باحترامها لذاتها. إذا كان ما تشعر به نحو عادل حقيقي أم نتيجة حرمان. فقد رفعت عينيها لرجل آخر.. لقد آذاها سليم أكثر مما ظن.. جعل في قلبها فراغا، سمح لغيره أن يتسلل إليه.

كانت لا تعلم أي الأشياء يمنعها أن تقول لعادل "نعم.. أقبل.. لكن بعد الانفصال رسميا" هل خوفها العبث بمعتقداتها التي تشعرها بالإثم إن فعلت ذلك.. أم أنها حتى هذه اللحظة لا تدري في أي اتجاه يجب أن تسير. عليها أن تتحرر أولا ثم تنطلق للحياة.

رفعت الهاتف لتتصل بالمحامي، تؤكد البدء في إجراءات قضية الخلع.. طالما رفض سليم الطلاق.

(31)

جلس عادل إلى صديقه في حديقة عامة يتحدث عن ألمه

- لم أكن أتخيل أنها متزوجة؛ كل الشواهد كانت تقول إنها وحيدة وحين سألت عنها علمت أنها مطلقة.

- لا يفرق إن كانت تطلقت بورقة رسمية أو مازالت تنتظرها؛ الموضوع مسألة وقت وطالما الخلاف وصل لطلب الطلاق فسيكون انفصالها قريبا.

- لقد تركت قلبي يندفع إليها، وما كنت لأفعل ذلك لولا يقيني بإمكانية أنها ستكون لي.

- مازال الأمل لم ينقطع.

- كيف؟ وقد أخبرتها أن تتجاهل حديثي لها بخصوص طلبي لخطبتها.

- هل تعتقد أنها ستفعل بسهولة، ألم تلاحظ ولو لمرة واحدة إعجابا منها بما قدمته لها.. اعتقد أن طلبك لها سيجعلها تفكر فيك أكثر، إن لم تكن فعلت من قبل؛ وربما أعطاها قوة أكبر لمواجهة رفض زوجها الانفصال.

- لا أذكر.. لكني لا أود أن أكون مؤثرا في انفصالها بأي طريقة.

شرد عادل في أفكاره فقد أعطاه حديث صديقه قطعة من الأمل.

(32)

ذهبت رحمة إلى أخيها الذي يسكن في إحدى القرى القريبة من المدينة تأمل أن يكون لديه المال الكافي؛ ليدفعه لها مقابل نصيبها من ميراث والدها. عندما وصلت البيت نالت الكثير من الترحيب. جلست إلى أطفاله تلاعبهم وقت ليس بقصير ثم اتجهت إليه تسأله

- هل لديك من المال ما يكفي لشراء قيراط واحد من نصيبي في ميراث أبي

نظر إليها نظرة غاضبة وقال

- أي ميراث؟

- ألم يمت أبي وترك عشرة قراريط وهذا البيت. ألم يأمر الشرع أن للذكر ضعف الأنثى؟ إذا فلك الثلثين من القراريط العشرة ولي الثلث؟

حاول أخيها التفلت من الموضوع وقال:

- لما تحتاجين المال؟

- أرجو من الله أن يهبني طفلا وأريد أن أسعى لذلك.

- وهل ترين من لديهم الأطفال سعداء.. أتبحثين عن التعب بنفسك. ثم تابع

- اتركيها لله.. إن أراد يرزقك سيرزقك دون سعي.

أدركت رحمة أن أخيها يتهرب من طلبها. ولم تتوقع منه ذلك؛ لكنها أيضا لن تقبل تهربه فالسنوات تمضي سريعا وكل شهر سيفرق معها؛ كما أنها لم تعد صغيرة، لقد أدركت الثلاثين من العمر. فقالت له وهي توجه بصرها إلى عينيه مباشرة:

- هل تنوي الشراء أم أتحدث إلى أحد من جيراننا ليقتطع قيراطا من الأرض ويعطيني ثمنه

وقف أخيها من مجلسه وأعطاها ظهره وقال

- لن اشتري أرضا وكذلك لن تباع لأحد وعليكِ أن تختاري بين الميراث وبين أخيكِ.

كان الاختيار صعبا حتى إنها لا يمكن أن تقرر بلا تفكير، فحملت حقيبتها وذهبت مسرعة وكأنها تهرب من كارثة. استقلت سيارة تصل بها المدينة ثم ركبت سيارة أخرى حتى تصل إلى الحي الذي تسكن فيه وأثناء ذلك لم تتوقف عن البكاء وكأن والدها قد مات مرة أخرى.

وصلت منزلها ولم يكن زوجها قد عاد بعد؛ فقررت ألا تخبره ما حدث؛ لقد توقع أن ما تطلبه ربما يتسبب في مشكلة بينها وبين أخيها، لكنها لم تتوقع أن تكون المشكلة اختيار بين حقها الذي كفله لها الشرع وبين أخيها.. دمها.. ورحمها.

(33)

أصاب القلق سليم بعد مكالمته مع زينة. ظل يتساءل "تراها مريضة أم مرهقة. هل يتركها تتصرف كما يفعل كل مرة أم يذهب إليها ويصطحبها إلى الطبيب إن كانت تحتاجه.. أوه.. لم يفعل ذلك ولو لمرة واحدة منذ تزوجا.. كانت تطلب منه وهو يتعذر.. حتى عندما شاعت أخبار تحرش الأطباء بالمريضات لم يهتز له جفن وظل يتعذر.. ثم توقفت عن طلب ذلك منه فقد سئمت رفضه وأعذاره مرارا وتكرارا.

لم يعرف سليم حتى اللحظة أن ما فعله جعلها تسقطه من احترامها رويدا.. رويدا وتوقفت عن الطلب ليس إلا لأنها فقدت الأمل فيه وفي أن يكون كما تتمنى.

اعتقد سليم أنه لو عرض عليها أن يذهب معها للطبيب ربما يسترضيها وتراجع نفسها عن الطلاق. لم يهاتفها مرة أخرى ولكنه استقل سيارته وأسرع إلى منزلها وبحماس غير معتاد منه ضغط الجرس؛ لتفتح له امرأة شاحبة نال الهم كثيرا من جمالها؛ بدا الإرهاق والتعب عليها وكأنها لم تنم لعدة أيام.

سألها: هل أدخل؟

- تفضل.

جلست صامتة أمامه فبادر قائلا

- قلقت عليكِ...

- مما؟ لا شيء بي.. أنا بخير

- ألم تقولي إن قلبك لا يتحمل؟ هل حقا يؤلمك؟

نظرت إليه وكأنها لا تعرفه. أذاك سليم الذي كان يوبخها لو تأخرت دقائق بسبب الزحمة؛ ولم تعد له الغداء في موعده. هل ذاك حقا الرجل الذي يغلق كل وسائل الاتصال وينام كي لا يزعجه شيء وزوجته وأولاده لا يزالون خارج المنزل.

أيهتم لأمرها إن كانت مريضة أم لا.. متى تعلم القلق؟ إنه لم يكترث يوما بها أو بأولاده إذا مرض أحدهم.

لاحظ شرودها.. فتابع

- إذا كنت متألمة.. اصطحبتك للطبيب كي تطمئني.. وسكت قليلا وتابع،

- وإذا كنت حزينة؛ فلنتحدث

رغم أنها تعتبر طلب عادل لخطبتها منتهى إلا أنها قررت أن تواجه به سليم، فاستدركت وقالت:

- منذ عدة أيام ولأني أشعت خبر طلاقي فقد تقدم شخص لخطبتي.

شعر سليم وكأن الكهرباء قد صعقته وقال بعنف

- نعم؟.. يبدو أنني لم أسمع جيدا

- اطمئن لقد سمعت جيدا.. ليس هناك مشكلة؛ فقد اعتقد أني مطلقة هو لم يكن مخطئا.. كذلك أنا لم أخطئ فقد أخبرتك أن تعتبرني طالق منذ تركت البيت ولم تسع ولو لمرة واحدة لتصلح ما بيننا.. كذلك أيضا لم تنهي طلبي وترسل لي وثيقة تحررني منك.. ماذا أفعل؟ أخبرني أنت ماذا أفعل.. هل أخبره أن ينتظرني حتى يتم الطلاق؟ أم أقنع نفسي كذبا أن لي زوجا يتمسك بي؟

انهارت باكية.. ولأول مرة يتصرف معها بحب

- تركتك في عصمتي؛ لأني متمسك بك

فقالت بمرارة والدموع تنهار من عينيها:

- أية عصمة؟ منذ متى وأنت تعصمني ومما ...

أية عصمة حين تنام بالمنزل وتتركني أدور بأولادنا بين النادي والمعلمين وبين شراء مستلزماتهم وبين المستشفيات، كم مرة سألتني عما ينقصني وما أحتاجه؟ كم مرة سألتني إن كنت سعيدة أم لا.. أية عصمة؟ عندما تتركني وأولادك دون سؤال لأسابيع ونحن نسكن نفس الحي؟ أجبني متى كنت عصمة لي؟ متى؟

لم يجد ردا.. يهدئها.. لم يجد كلاما يقنعها أنها ليست على حق.. فقد كان مقتنعا أن الرجل حر والمرأة أمته وربما لا يريد فراق زينة لأنها كانت نعم الأمة.

(34)

خرج سليم هائما لا يدري أين يذهب أو ماذا يفعل؟

إنها لم تكذب في شيء ولكنها من اختارت الحياة بهذا الشكل. لقد وضع لها خيارين عندما أصرت على عدم ترك الصيدلية.

أخبرها إما أن تترك العمل بها وتصبح سيدة المنزل أو تظل على رأيها وتتحمل كل أعباء البيت فوقها. لكن أي أعباء يجب على المرأة تحملها في بيتها غير رعاية أولادها داخل البيت وليس خارجه ورعاية زوجها و كفايته من المودة والإحسان.

لقد تحملت زينة و أتمت ما هو مطلوب؛ لكنه بقصد منه أو بغير قصد وضع أحماله أيضا فوق كاهلها ظانا، أنها لا تدري ماذا يجب أن تحمل، أو أنها تجهل ما لها وما عليها.

ولم يترك الحمل فوق كاهلها وكفى بل زادها عليه ذلا وسوء معاملة؛ فقد كان يكرر دائما إذا ما تعبت وطلبت الراحة وما مهمتك إذًا؟

ماذا ستفعلين إن لم تراعِ خدمتي وخدمة أولادك؟ هل تزوجها منذ البداية لتصبح خادمة بالنهار وأمة بالليل؟

هل هذا ما يرجوه لابنته بعدما تكبر.

حتما ستكون كأمها فنحن نحاكي أكثر مما نتعلم بأي طريقة أخرى.

وصل لشقته وهناك وجد محضر الحكمة ينتظره؛ ليتسلم إعلانا بقضية تخصه.. تعجب بل أذهله ما قرأ أنها هي ترفع عليه قضية خلع.. ألهذا الحد لم تعد تطيقه.. أم أنها تعجل لترتبط بالزوج الجديد؛ جن جنونه وهو يقرأ الإعلان ويعيد قراءته كأنه لا يصدق ما به. هكذا قررت ونفذت وحدها ما تريده..

لم يتصور يوما أن تكون صفعتها له بكل تلك القوة، وكل ذلك العنف.. ألم تكن زوجته.. ألم تعش معه ما يقارب خمس عشرة سنة.. لكنه أبدا لم يتخيلها بتلك الجرأة.

يبدو أنه بحاجة ليعرفها من جديد. فتح هاتفه الجوال وللمرة الأولى يقرر أن يقرأ رسائلها التي أهملها لشهور؛ ثم وبخها لتتوقف عنها؛

الرسالة الأولى

زوجي الحبيب

انزعجت جدا عندما أخبرتني أن أحلامي يجب أن تكون على حساب راحتي وحدي.. لن تشاركني.. هذا مخالف لما وعدتني به سابقا.. أشعر بالخذلان من أكثر رجل أحببته.. هذا يؤذيني جدا.

الرسالة الثانية

زوجي الحبيب

أنا متعبة جدا.. ساعدني في البحث عمن يشاركني.. أو شاركني أنت.. أحتاج دعمك وأفتقد احتوائك لي.

الرسالة الثالثة

زوجي الحبيب

يبدو أني مصابة بالاكتئاب.. ربما بسبب التغيرات الهرمونية التي أصابتني مؤخرا.. مضى بنا الزمن سريعا.. أرجو أن تجد الوقت لترافقني إلى الطبيب.. سأحتاج دعمك أثناء العلاج.

الرسالة الرابعة

سليم...

لما لا نترك الأولاد بصحبة أمي ونتحرر من المسؤولية عدة أيام.. بحثت عن أماكن كثيرة.. أظن بعضها قد يعجبك.. لنختر واحدا معا.

الرسالة الخامسة

سليم ..

يتنامى داخلي الشعور بالخذلان.. يكاد يحطمني.. أحتاج لاهتمامك أكثر.

الرسالة السادسة

أعلم أنك لن تقرأها.. لكني -فقط- أفعل ما يتوجب علي فعله.

صدقني قد سئمت.. مما؟ لنتحدث قليلا لو أردت أن تعلم.

الرسالة السابعة

أريد وردة.. أريدها منك

هل تذكر حين أهديتني واحدة أثناء خطبتنا.. حاجة ملحة داخلي؛ لتكرار نفس المشاعر التي تملكتني وقتها.

الرسالة الثامنة

أبو أولادي ..وددت فقط إخبارك أن هناك اختلاف كبير بين الجنس والحب.

مؤكد أنك تعلم؛ أن من يغتصب فتاة لا يحب.

الجنس وظيفة أما الحب؛ فهو الشعور بأنك مازلت على قيد الحياة.. أريد حبا.

الرسالة العاشرة

الآن.. صرت أعوض نقصي منك بطريقة شرعية.. أصبحت أتابع الأفلام والحلقات الرومانسية.. ليس لشيء سوى أن أتابع البطل وهو يبحث بلهفة عن حبيبته.. لقد فقدت إحساسي بالحب معك.. تلك مشكلة كبيرة.

الرسالة الحادية عشر

الآن.. ينتابني الخوف من رغبة ملحة في التخلي عنك.. إنذار أخير؛ حاول أن تحتويني قبل نفاذ طاقتي.

الرسالة الثانية عشر

الآن.. أدركت ما ينقصني.. وما أحتاجه.. لكنه للأسف ليس معك.. ما ينقصني ربما أجده لو تراجعت للخلف، سنة، سنتين، ثلاث، أربع.. مؤكد

أني سأجده إذا تراجعت للخلف خمس عشرة سنة.. ذاك عمر زواجنا.. هل تفهم؟ أشك في ذلك.. لقد رضيت بشعري الأبيض.. وأيقنت أن شيخوختي القادمة ستكون معذبة معك.

هذه الرسالة الأخيرة.. لن أكتب بعد اليوم لك؛ ليس لأنك لا تقرأ.. ولكنك لا تهتم.. سأصير مثلك ، وأتعلم اللامبالاة.. أرجو أن تحتمل.

همّ بالاتصال بها؛ لكنه تردد وفتح تطبيق الرسائل الالكترونية وبدأ يكتب لها؛

"زوجتي الفاضلة زينة،

قرأت رسائلك اليوم.. وأعتذر أني لم أتابعها في وقتها.

لو فعلت ذلك، كانت ستتغير أمورٌ كثيرةٌ.. لم أرك في السنوات الأخيرة سوى امرأة تتقن فن العناد،

ولم أفكر فيما دفعك له.. لقد قررت وقتها أن أكسره داخلك.

لكن فيما يبدو.. أن قسوتي زادت دون قصد؛ حتى كسرت قلبك.. أجمل ما أحببت فيكِ

زوجتي الحبيبة؛ أعلم أني حملتك فوق طاقتك.

لكني نادم على ذلك.

مازال لدي أمل ألا أفقدك.

أكتب لك متوسلا.. وأنتِ تعلمين جيدًا أنني لم أفعلها من قبل؛

كي تعطيني فرصة أخرى.

وأعدك أن تكوني أميرة في بيتك.

سنكون شريكان في كل شيء داخل البيت أو خارجه سأكون حلمك وسندك،

أعتذر إذا خذلتك.. اعتذر لأني نسيت مرة أنك كيان كامل مثلي.. ليس تابعا لي.

سيدتي الرائعة؛ قرار الانفصال اليوم صار بيدك أنتِ.. لم يعد بيدي.

بعدما وصلني إعلان دعوى الخلع التي قمت بها ضدي. أرجو أن تتريثي وتراجعي أمورك.

مرة أخرى؛ أعتذر منكِ وأرجو أن تقبلي اعتذاري.. حبيبتي.

ثم أرسل كلماته إليها.

(35)

طال تغيبه عن المنزل لأيام دون أعذار.. حتى اضطرت سارة لمراقبة زوجها.. ولم يكن هناك أبسط من ذلك مع تكنولوجيا الهواتف التي كانت سارة تفهمها جيدا.

تظاهرت بالتودد وأصبحت قطة بلا مخالب لعدة أيام.

لم يكرهها.. ولكنه كره أن تكون على غير طريقته التي رسمها لها؛ فما أن مالت إليه حتى نسى كل احتياطاته؛ تاه عنه حذره، لتكتشف ما أخفاه عنها أسابيع.

رن هاتفه فاستجابت بدلا منه.. كان اسما مؤلفا من حروف منفصلة..

لم يجبها أي صوت.. احتفظت بالرقم في ذاكرتها.. لم تسأله، عن صاحبه. كان سهلا على سيدة في مركزها أن تعرف ليس فقط صاحب الرقم ولكن تاريخ صاحبه منذ مولده حتى الساعة التي سألت عنه فيها.

وكانت مفاجأة قاتلة.. صارت بسببها كالذبيحة التي تنتفض ألما.

(35)

بعد خروج سليم انفردت زينة بنفسها؛ وعقلها لا يتوقف عن التفكير .تراجع كل ذكرياتها مع سليم . تتذكر كيف تحولت حياتها معه و بات تسلطه واضحا بعدما قررت ألا تتوقف عن العمل ..فالعمل لا يمثل لها دراسة و مصدر للدخل فقط ولكنه ذكرى والدها وحلمه. انها تشعر أن أنفاسه تتردد معها هناك. لا يمكن أن تتخلى عنها و لما تتخلى عنها لمجرد أن تلك رغبة سليم. ولماذا قرر فجأة أن تتوقف عن عملها ؛ ألم يتعرف عليها في ذلك المكان . وتزوجها وهي لا تزال به. لما يقرر أن يفصلها عنه بمجرد أن تملك سلطة عليها؟ فتحت مذكراتها و كتبت:

(أتساءل كثيرا ما الذي يحوّل شخصا كان حلما في يوم من الأيام، إلى كابوس لا نطيقه، وما الذي يحول الاهتمام المتناهي إلى إهمال ولا مبالاة.. أهو الشعور بالتملك واستمرارية العلاقة، فلم يعد هناك دافع للاهتمام، وصار الاحتفاظ بالشريك أمر مسلم. هل يمكن أن يكون ذلك حقيقة.. مستحيل. ليس هناك حال للبشر مسلم باستمراريته، فكل شيء يتغير وتتغير أشياء كثيرة حوله بناء على تغيره).

فتحت رسائلها الالكترونية لتلقي نظرة أخيرة قبل أن تنام؛ فما لبثت أن رأت رسالة منه، حتى فتحتها بسرعة، كأنها تتشوق معرفة محتواها. قرأتها مرة ومرات.. إنه حقا لا يطلب أو يتوسل إنه اعتاد أن يأمر فيطاع فقط. لقد ظنته سينصرف بلا عودة، أو ربما تمنت ذلك. لكنه يطلب العودة من جديد. هل تثق به وتصدقه فقد وعدها سابقا ولم يفِ؛ فلما تصدقه هذه المرة؟

إن حديثه تغير..

تشعر أن شيئا بداخله اهتز.. اهتز فقط لأجلها.. وهذا يعني الكثير.

التقطت الهاتف وكتبت له:

(لقد وعدتني سابقا، فما أوفيت.. كيف أضمن أنك تفي هذه المرة ولا تكون كرة جديدة من العذاب والمعاناة)

شعرت بارتياح كبير، وهي تضغط زر الإرسال.

لأجل أولادها فقط ستحاول أن تصدقه؛ ستحاول أن تثق به مجددا لكن للمرة الأخيرة.

ستتناسى أنه صار بإمكانها اختيار حياة جديدة ربما كانت أفضل..

تعيش فيها بتقدير أفضل.

من أجل أولادها ستتجاهل كل ما مضى وتصدقه وتحطم بإرادتها القشرة الصلبة القاسية التي غلفت حبها السابق له.

حاولت أن تطلق طاقة سوداء، احتبست داخلها لسنوات.. طاقة ربما أعطاها إطلاقها قوة تحيي ذكراها الجميلة معه.

بعد أن أتمت الرسالة لاحظت أنه قرأها.. بدأ يكتب لها الرد:

(كان الدرس قاسيا بما يكفي؛ كي لا أكررها؛ كما أنه بوسعك أن تطلبي ما تشائين.. لتتيقني)

كتبت له:

(لقد رفعت الدعوى، وانتهي الأمر)

رد عليها سريعا:

(لا لم ينته، مازال القاضي لم يحكم بفراقنا.. مازلت زوجتي)

هاتفها صوتيا وتابع

(اعتدت وجودكم.. الحياة بدونكم سيئة.. أعلم وأدرك مدى الأذى الذي سببته لكِ .....)

قاطعته

(لا تعلم.. لا يمكنك أن تعلم.. الجزار لا يدرك أبدًا ما تعانيه ذبيحته)، كانت تقصد إعجابها بعادل الذي ازداد بعد طلبه الزواج منها.

قال بغضب:

لست جزارا.. أنا زوجك.. أنت حبيبتي.

- هكذا جعلتني أراك.. ثم أعطيتني -مشكورا- الوقت الكافي لأبتعد وأقرر.. وأرى إن كنت سأحتمل عقبات ما أفعله.. مشكورًا، أنك تركت لي الوقت لأعيد اكتشاف نفسي من جديد.

- اكتشاف نفسك؟!

- نعم تماما.. كما اكتشفتها أنت بعد رحيلنا.. فإذا كنت قد جربت الحياة بدوننا ووجدتها صعبة.. فأنا قد جربتها بعيدا عنك ووجدتها أيسر؛ كيف تطلب مني العودة لحياة كادت تدمرني.. أريد ما يشفي ألامي و يقنعني

لم تمهله المزيد من الوقت للحديث..

لكنها طلبت أن يفكر فيما يمكن أن يجعلها تتراجع..

ربما وجد ما يدفعها إليه مرة أخرى .

(36)

عاد زوج رحمة إلى البيت فوجد زوجته شاردة صامتة، لم تقابله بالابتسامة و الترحاب كعادتها.

يبدو أن شيئًا قد تغير فيها؟!

سألها عن حالها فلم تجب بأكثر من:

بخير

- هل رفض أخوكِ شراء الأرض

نظرت إليه وقالت:

- ليس تماما.

- اعذريه ربما لا يملك ما يكفي من المال.

أجابت باقتضاب:

ربما

إلى من تشكو أخاها..

هل تشكوه إلى زوجها؟

وماذا سيفعل أو يملك الزوج لأخيها.

لم تتمنى يوما أن تصف أخيها باللص أمام زوجها وإن لم تقلها..

لكن من يأكل حقوق غيره ليس إلا لص.

أتلك وصية أبيه له بأن يكون سندا لأخته وعونا لها في الحياة.

إنها لا تملك أخ ولا أخت غيره، هل تستغني عنه و تحصل على ميراثها..

هل تقطع الرحم لأجل المال؟ هل تصمت وتتجاهل أم تدافع عن حقها؟

لكن ما يفعله أخيها معها ظلم بين وفجور.. وهي في النهاية لا تعرف كيف تتصرف.

قررت أن تستعين بزينة فلا علاقة لها بالموضوع وستعطيها رأيا عاقلا محايدا؛ كما أن زينة ليست ثرثارة لتتكلم بسؤالها لأحد آخر.

وعندما ذهبت للعمل في اليوم التالي كان أول ما فعلته أن أخبرت زينة أنها تحتاجها في أمر هام.

وعندما هدأ العمل بالصيدلية لوقت قصير أخبرتها بما حدث مع أخيها فطلبت منها زينة أن تذهب إلى دار الإفتاء وحددت لها الوقت الذي ستصحبها فيه إلى هناك.

(37)

عادت زينة إلى بيتها وهي مشغولة بما حكته لها رحمه عما فعله أخيها معها..

دهشت كثيرا لما يفعل أخ بأخته.

ألم يجعل له الشرع ضعف ميراثها.. ألا يكتفي بذلك فيطمع فيما لها. وكيف يهددها بقطع علاقته بها إذا ما طالبت بحقها.. أيجعلها بين خيارين كلاهما يغضب الله.. إما أن يسرقها أو يقطع رحمها.

تابعت زينة مهامها اليومية المعتادة؛ ساعدت ملك في استذكار دروسها وجلست إلى يوسف تحكي معه عما فعله خلال يومه؛ فلاحظت تغير مزاجه سألته عما به.

سألها يوسف:

أجد أبي قد بدأ يأتي لزيارتنا من جديد.. هل تراجعتِ عن قرار الانفصال؟

أجابت زينة:

ليس بعد.. لكني أرى أنكم بحاجة كبيرة إليه إذا انفصلنا أو لم ننفصل

ثم اقتربت منه وقالت:

هل يزعجك إن تراجعت عن قراري

قال يوسف وهو ينظر إليها بعطف:

كنت في منزلنا تحملين كل المسؤولية وحدك.. أما هنا فجدتي تحمل عنك جزءًا منها.. هل تعودين لتحمليها كلها وحدك؟

أمسكت بيده وقالت:

لست وحدي ما دمت معي أنت وأختك.. لقد كبرت حتى صرت رجلا يشعر بألمي ويقدر تعبي لأجلكم.

تركت يوسف واتجهت إلى غرفتها..

بحثت عن هاتفها الذي طالما تضعه وتنساه. كانت تود أن تعرف إذا أرسل لها سليم ردا على رسالتها أم لا.

الرسائل كانت كثيرة ذلك اليوم.. واحدة فقط هامة؛ كانت من سارة تسألها عدم غلق الهاتف؛ فهي تحتاجها في أمر عاجل .لكن لم تكن هناك أية رسائل من سليم .هل تراه سيتراجع ثانية أم أن هناك أمرا ألم به. هل سيكابر من جديد ويتراجع؟ أم أن حبه و لهفته القديمة لها بدأت تتجدد...؟

وللمرة الأولى منذ تركت البيت يساورها القلق عليه.. تريد أن تطمئن عليه . لكنها لم تحاول فعل أي شيء سوى الانتظار.

(38)

علم أن ثقتها به قد تبددت، كان عليه أن يعمل على إعادة ثقتها به.

لكنه لا يدري ماذا يفعل.. فكل ما يفعله لتعود سيضيع سدى إن لم تعد ثقتها به أولا..

لقد اقتنع بكل أعذارها.. لكنه فعل كل ما فعله معتقدا أنه حقه.

إنها زوجته وعليها أن تكون مطيعة له في كل شيء حتى وإن كان ضد رغبتها.. طالما أن ما يطلبه لم يحل حراما أو يحرم حلالا.

وتجاهل عاطفتها ومشاعرها.. تمام التجاهل وكأنها ماكينة.. يدوس فتتحرك.

كانت محقة في هروبها منه.. لكنه الآن يبحث كيف تعود؛ لم يكن له سوى أمه يتحدث إليها ويسمع منها.

عندما رأته أمه قالت:

- أمازالت غاضبة؟ لم تعاتبك

- بدأت تتحدث؛ لكني لا أدري ما أفعله

- هل أعادت طلب الطلاق؟

- لا.. لقد طلبت الخلع..

تحدثت إليها بما لم أحدث به أحد في حياتي..

تحدثت وقد رفعت كل الحواجز التي أختبئ خلفها.. جعلت نفسي أمامها، كالطفل الوليد.

قالت الأم بانفعال:

أمر جيد.. ربما هي تعيد التفكير في قرارها.. إنها لا تحتاج منك الآن سوى مبررا لعودتها.. تحتاج ولو سببا واحدا يعطيها الأمل أن ما ستعود إليه سيكون أفضل.

- وماذا أفعل؟ لقد اعتذرت

- ساندها.. ذاك هو الوقت الذي تحتاج مساندتك فيه أكثر.

تزوج منذ خمسة عشر عاما ومازال لا يفهم ماذا تريد المرأة. إذا كان لا يدري حقا كيف تفكر ؛ فهو في حاجة ماسة للتعلم انه يحتاج حقا أن يتعلم كيف يكسب قلب زوجته فلولا أمه لخسرها..

يجب أن يتعلم ويعلم جيدا عن عقول وقلوب النساء. ولما شبهن بالقوارير؛ ألهذا الحد هي ضعيفة.. لكن ما نوع الضعف داخلها؟ إذا كانت بقوة زينة.

(39)

في صباح اليوم التالي خرجت زينة ورحمة تقصدان دار الإفتاء؛ لتسأل رحمة عما تفعل في أمر ميراثها.

انتظرت حتى انتهت رحمة من سؤال الشيخ وخرجت إليها..

سألتها عما أخبرها؛

فقالت رحمة:

أخبرني أنه عليّ التمسك بحقي لأن الله هو من شرعه لي..

أما عن قطع علاقته بي فأخبرني أن أخي سيكون آثما إن فعل ذلك وليس عليّ وزر، لأنه هو من تجب عليه صلة الرحم.

وصمتت رحمة برهة وقالت:

عندما رأى الشيخ حزني؛

أخبرني مرة أخرى أن أتمسك بحقي؛ فلا معنى للمودة مع ضياع الحقوق.

كررت زينة الجملة الأخيرة وكأنها لمست جزء من قلبها:

لا معنى للمودة مع ضياع الحقوق.

(40)

وصلت زينة برحمة إلى الصيدلية ثم انطلقت بسيارتها إلى حيث تنتظرها سارة في مكان عملها.

أنهت ما بيدها من عمل ثم بدأت بالكلام.

- تزوج بامرأة أخرى

- من؟

- زوجي.. متزوج بأخرى.. وأنا لا أدري..

تلقيت الخبر كالصاعقة، لا أدري كيف أتصرف.. أود لو أقتله.. ليس لأني أحبه أو أغير عليه؛ فقد ماتت تلك الأشياء منذ زمن. لكني أريد أن أنتقم؛ لأنه غافلني كل تلك السنوات.

- تريثي فهو لم يرتكب جريمة حتى تواجهيها بجريمة.

- هل تدركين حجم النيران التي أشعلها في قلبي بزواجه أخرى.

- أتخيل ذلك.

- أريد أن أنتقم .. لابد أن أنتقم منه لخداعي.

- لا تفكري فيه.. لكن فكري كيف ستتعاملي مع الوضع الذي جعلك فيه

- أي وضع؟ أتريني أقبل بذلك.. محال.

- إذا كيف ستتصرفين؟

هذا هو السؤال الذي عليكِ أن تفكري به الآن.

- لن يمسني بعد اليوم.. فليكتفي بالأخرى.

- وأولادك.. أنت لا تملكين مسكنا.

- لكن أولادي لهم مسكنهم ومازالوا صغار.

استمعت زينة إلى سارة حتى تخلصت من غيظها وبدأت تهدأ ثم انصرفت.

لكنها لم تكن تعلم أن سارة ستقابل اليوم محاميا لتقيم قضية طلاق من زوجها؛ وكذلك أنها ستغير قفل البيت كي لا يستطيع زوجها الاقتراب من الشقة وأنها سترفق دعوى الطلاق بدعوى لطلب النفقة على ابنتيه بعد تركه إياهم.

(41)

قبل أن يغادر بيت أمه هاتف زينة قائلا:

- زينة.. أنا آت.. انتظريني

ولم تزيد محادثته عن ذلك لم يخبرها متى يأت أو أين تنتظره.

ولم يكن يدري لما هاتفها؛ هل ليعلمها بنيته لزيارتها؟ أم ليطمئنها أنه لم يستجب لطلبها الذي سألته إياه منذ أيام؟ أم أراد الاستماع لصوتها ليختبر رضاها فيه؟ هو ذاته لم يعرف لماذا تصرف هكذا.

ربما دفعته مشاعره التي تحولت في لحظة أمل كبيرة؛ كمشاعر مراهق لم يجرب الحياة.

خرج وانطلق بسيارته إليها والأمل يحوطه من كل اتجاه.. كأنه قد أيقن عودتها.. ستعود ولن تهجره ثانية.. لن يكرر أخطاءه كي لا يفقدها.. كم اشتاق إليها؟ لقد غابت طويلا وافتقدها كثيرا.

فتحت له ابنته باب الشقة فاحتضنها وقبلها ثم رفعها عاليا يلاعبها.. فاقتربت منه ملك بكل حب واحتضنت رأسه بين ذراعيها وقالت: افتقدتك كثيرا يا أبي.. لا تتركنا مرة أخرى لا أحب أن ابتعد عن أحدكما.

وقبل أن يضع ملك أرضا؛ ظهرت زينة من غرفتها، كانت المرة الأولى التي تقابله، منذ تركت المنزل؛ وهي متزينة.

استبشر بحالها؛ وقرر أن تتحدث ويستمع حتى يعرف كل ما دار في بالها ولم يعرفه.

قال: تحدثي.. جئت أسمعك جئت لأنفض كل غبار الماضي، لتعود قلوبنا كأول مرة التقينا.

قالت: سمعت أمس جملة؛ تأثرت بها هل تسمعها مني؟

قال: أسمعك لا تترددي.

قالت: لا معنى للمودة مع ضياع الحقوق.

انتبه لكلمتها ثم قال: تلك حقيقة.

قالت، إذا أريد منك عهدا.. لتحفظ لي حقوقي لديك كزوجة.

تابعت عينيه وهو يستمع إليها ثم أردفت.

- وأنا سأعطيك عهدا.. لأحفظ حقوقك لدي.

رغم دهشة سليم مما تقوله زينة ألا انه أراد أن يستمع لها.. لكل ما تريد قوله؛ وعاهد نفسه أن يكون ذا قلب صاف وصدر رحب كما كانت معه دائما.

- لكن، كيف سيكون ذلك العهد؟

- وثيقة مكتوبة

- كيف؟

كانت تعد ورقتان أمامها فأعطته واحدة وأخذت لنفسها الأخرى، هيا أكتب ما يجب عليك نحو زوجتك وما يأمرك الشرع أن تقدمه لها.

أخرج قلمه من جيبه وبدأ يكتب وهي تتابعه،

لكنه لا يجد الكثير ليكتبه فتوقف وقال: حددي ما تريدين، فأنت تعلمين أن جل ما تعلمته في مجال المحاسبة والكمبيوتر لأنه عملي، وأضاف:

تعلمين أني لا أجيد التعبير بالكلمات.. اكتبي أولا ما تمنيتي أن تجديه مني و خذلتك فيه .

أمسكت زينة بالقلم وكتبت

"زوجي الحبيب ؛ صرنا جناحين لطائر واحد لو كسر أحدنا؛ ذهب نفع الأخر، فقومني بالحب لا بالإهمال.. إذا ذهبت للطبيب لا تدعني أذهب وحدي فإني أشعر بالقلق من دونك... إذا كنت مريضة ساعدني بأعمال المنزل دون تذمر.. ذلك سيساعد على شفائي سريعا.. إذا تأخرت عنك مرة لا توبخني؛ لكن قل افتقدتك؛ ذلك سيجعلني مشتاقة لعودتي؛ كما أني لن أفعلها ثانية.

مشاكل الدنيا ..ليست كلها بسببي.. صدقني. هناك أسباب أخرى؛ لذلك فلا مبرر لتحملني وزرها كل مرة.

أولادنا مسئولية مشتركة فلا تحرم ولدك؛ أن يكتسب الرجولة منك .

إذا مررت ببائع الزهور تذكر أني أحب الورد، واحدة منه لن تكلفك الكثير"

أعطته الورقة وطلبت منه التوقيع وأن يتعهد بتنفيذ كل بنودها. هذا هو شرطها للتراجع عن طلب الطلاق.

قرأ سليم ما كتبته زينة.. فتملكه شعور بالندم.

وتساءل:

أهذه هي الأسباب التي كادت تهدم بيتنا.. أهذا ما تحتاجينه من حقوق

قالت:

حق المودة!! إنكارك له هو ما جعلني أفقد الشعور بحبك لسنوات؛

جعلني أفقد طعم الأيام و لم يسلي قلبي غير أولادي.

قال:

وعندما فقدت الأمل في وجود الحب معي قررتِ الانفصال

قالت:

نعم ... لأحمي نفسي

قال:

مما؟

قالت:

من التقصير في حقك

قال:

لكني لم أشعر بتقصير منكِ.. ومازلت أحبك

قالت،

لم أستطع كرهك رغم عذاب نفسي.

وطال صمتهما حتى قطعه بكلمة منه

- جاء دوري لأكتب شروطي

ابتسمت وقالت:

وأنا مستعدة للتوقيع

لم يكتب الكثير "عديني إلا تفعليها ثانية. لا تتركي بيتك. وعاتبيني تحت سقفه"

أعطاها الورقة و طلب منها التوقيع .

علقت وهي توقع؛ لن أفعلها ما دمت تفي بعهدك معي

وقبل الاتفاق على العودة؛ كان هناك موضوع مؤجل قررت التحدث فيه فقالت:

- أمازلت مصرا أن أترك الصيدلية.. أرجو أن تراجع التفكير فهي تمثل لي ذكرى أبي.. وليس سهلا أبدا أن أنقطع عن ذكراه وقد حرمت معظم سنوات عمري منه .

في هذه اللحظة قرر سليم أن يفكر فيها وفي مشاعرها.. جنبا إلى جنب مع تفكيره في حقوقه عليها واحتياجاته منها كزوجة؛ فقال: هل عدلا أن أعود من عملي ولا أجدك في مقابلتي.. هذا يحزنني ولا يغضبني فقط.

قالت: سأنتظرك.

قال: لنخرج معا ونعود معا.

(42)

علم عادل بعودة زينة إلى زوجها.. كان يحسب ذلك ضمن توقعاته؛ ورغم إعجابه بها الذي لم يخفت.. إلا انه فرح؛ بأن عائلة أخرى لن تعاني التشتت مثل عائلته.. وتمنى لو تمتعت زوجته بمرونة زينة وقررت إعطائه فرصة أخرى.

رحمة حصلت على حقها كاملا عن طريق القضاء.. ولم تبال بهجوم الجميع عليها لأنها تقاضي أخيها. لأن الحق الذي أمر به الله هو الصواب

وإن اجتمع كل الكون على خلاف ذلك. أما أخاها فقد عاد متوددا لها مرة أخرى.. بعد عدة شهور ليبارك لها مولودها.

سارة حصلت على الطلاق ونفقة عالية للبنتين وانضمت إلى جمعية نساء قويات مستقلات.

تمت

2019 - 04 - 29